الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي

حياته، آراؤه، ودوره في التجديد والإصلاح

تأليف

مجيب الرحمن عتيق الندوي

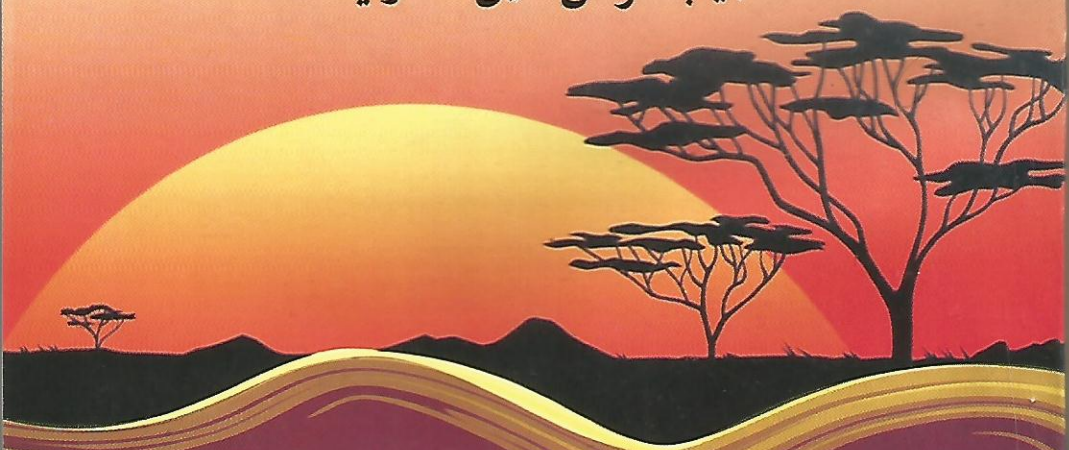

معهد الإمام أبي الحسن الندوي للدعوة والفكر الإسلامي
جامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد

الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي

حياته،آراءه،ودوره في التجديد والإصلاح

تأليف

الأستاذ مجيب الرحمن عتيق الندوي

عميد الشؤون التعليمية

دار العلوم الامام الرباني- الهند

حقوق الطبع محفوظة

إسم الكتاب: **الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي حياته،آراءه،ودوره في التجديد والإصلاح**

المؤلف: مجيب الرحمن عتيق الندوي

الطبعة الثانية: 2020م

للتواصل

Mujeebur Rehman Ateeq Nadwi

Email: Mujeeb_ateeq@hotmail.com

Abulubaba.nadwi@gmail.com

Contact: +91-9897971203

www.mujeebnadwi.com

مقدمـــة

(فضيلة الأستاذ الشيخ سلمان الحسيني الندوي حفظه الله)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد! فإن تاريخ الإسلام حافل بالعباقرة والنوابغ والفطاحل من العلماء، وعظماء المجددين والمصلحين، وقد كان خير القرون قرن النبي صلى الله ، ثم تلت القرون التي كانت في مجموعها تتفاوت درجاتها، ولكنها كانت عامرة بالمجددين والمصلحين، تنبأ بهم النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث متعددة متقاربة المعنى، متشابهة في التعبير، فقد قال – صلى الله عليه وسلم–:

" إن الله يبعث على رأس كل مأة سنة من يجدد لأمتي أمر دينها " ([1])أو كما قال،

وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق،لا يضرهم من خذلهم إلى قيام الساعة "([2])

---

[1] رواه أبو داود (رقم/4291) وصححه السخاوي في "المقاصد الحسنة" (149)، والألباني في "السلسلة الصحيحة" (رقم/599(

[2] الحديث المذكور حديث صحيح ، وهو حديث متواتر ، في أعلى درجات الصحة ، وقد رواه البخاري (7311) ومسلم (156) عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي

وقال صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين"([1])

وقد تحققت هذه النبوءات المحمدية – على صاحبها الصلوات والتسليمات– عبر التاريخ الإسلامي، فلم يخل قرن من العلماء الراسخين، والدعاة المبلغين، والمصلحين المجددين، في القارات والبلدان، وبقي الدين على أيديهم، ولجهودهم المتواصلة صافيا نقيا، رغم كل المحاولات للنيل منه، وتحريفه، والعبث به، ورغم المبتدعات والمحدثات، وآثار الغلو والإبطال والجهل التي جاء ذكرها في الحديث.

كان من هؤلاء المجددين الكبار بل على رأسهم في الهند رغم أنه كان في القرن العاشر: الإمام أحمدبن عبد الأحد السرهندي الذي كتب له إخراج هذه البلاد من الردة العقائدية والحضارية والثقافية التي تبنى الدعوة إليها، وتنفيذها، وإكراه الناس عليها أقوى دولة مغولية مسلمة، ارتد طاغيتها، ففرض الردة القسرية، فلولا بعد قدر الله وسنته في خلقه أحمد بن عبد الأحد وجهوده الملهمة للانتصار لهذا

ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ) وفي رواية لسلم (1037) (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ)

1 رواه البيهقي

الـدين، وبعثه،وإحيائـه لكانـت هـي أندلسـا أخـرى، أشـد قتامـا وظلامـا وضـلالا، فقـد قـام الإمـام السـرهندي بالإصـلاح الشـامل والتجديـد العظيم، حتى أعاد للإسلام دوره وحكمه وسلطانه، وعادت البلاد بعد الردة العارمة إلى حضن الإسلام، حتى تهيأ الجو في القرن الثاني عشر الهجري لظهور مجدد للعلوم الإسلامية ، تفسيرا وحديثا وفقها وكلاما، وحكمـة، وعرضـا معاصـرا للشـريعة الإسـلامية وأسـرارها ومصـالحها ، وحركة فكرية إصلاحية شاملة، لإقامة حكومة إسلامية راشدة، وتحرير الـبلاد مـن قـوى العـدوان والطغيـان التـي قامـت علـى أنقـاض الدولـة المغولية المفككة المنهكة، تلكم هي شخصية الإمام المجدد أحمد بن عبد الرحيم الفلتي الدهلوي (**1114–1176** هـ) الذي قام يجدد علـم الكـلام جامعـا بـين أشـتاته، ينفـي الغلـو فيـه والشـطط، والتسـاهل والتميـع، ويقـيم الميـزان القسـط بكتابـه " العقيـدة السـنية " ومباحثـه الكلامية في مأثرته العظيمة " حجة الله البالغة" ، ويجدد علوم القرآن فيه متزنا عادلا، بين إفراط الرواة، وتفريط العقلانيين، فلخص المباحث المهمـة فـي " الفـوز الكبيـر فـي علـم التفسـير" ويجـدد علـوم الحـديث والفقـه جامعـا بـين المـدارس الفقهيـة، ومؤسسـا لمـنهج فقهـي جـامع جديـد، منهج الفقهـاء المحـدثين، الـذي وضـعه بطـرح جديـد، وتقريـب مزيـد، وتجديـد مـؤثر بليـغ، ولـولا الاحـتلال الكريـه البغـيض، وحركـة المقاومـة والإصـلاح، وعـدم تمكـن خلفائـه مـن تنفيـذ مخططـه، ونشـر

منهجه، وصياغة المناهج الدراسية في ضوئه، لكان للمسلمين في الهند شأن ودور رائد، يمهد الطريق في بلدان العالم الإسلامي لحركة إصلاحية شاملة.

ولقد قامت في القرن الثالث عشر حركة التجديد والمقاومة والإصلاح على أيدي أحفاده، وخلفاء خلفائه تحت لواء أمير المؤمنين مجدد القرن الثالث عشر الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الراي بريلوي، الذي اضطرته ظروف البلاد العصيبة للقيام بحركة المقاومة والإصلاح، قبل استكمال حركة التجديد والإصلاح ، وتقبله رب العزة والجلال مع صحبه الغر الميامين في الشهداء والصديقين، ثم تتابعت في خلفائه و أخلافه المحن، من قتل وصلب، ونفي وطرد، وحبس واعتقال، ذاقت الحركة فيها الأمرين، واغتنم المنافقون والمندسون هذه الأوضاع، فأشاعوا وأرجفوا، ومكنوا من الاحتلال، وحاولوا القضاء على هذه المحاولات، وفرقوا المسلمين وأثاروا بعضهم على بعضهم، ولكن رغم كل هذه الجهود العميلة المغرضة، نجحت حركة الإمام الدهلوي، وقامت على منهجها الجامع: مؤسسات ومنظمات وحركات تعليمية ودعوية إصلاحية في شبه القارة الهندية، وكان لها تأثير عالمي، ودور إصلاحي بارز، فمن حركة الإمام الشهيد إلى قيام دار العلوم ديوبند، ودار العلوم التابعة لحركة ندوة العلماء، إلى حركة المناديل الحريرية، إلى جمعية العلماء، والإمارة الشرعية، إلى حركة الدعوة

والتبليغ، والجماعة الإسلامية، وعشرات غيرها من المنظمات والمؤسسات والحركات ثمار تلك الشجرة المثمرة الباسقة التي غرسها الإمام الدهلوي، وسقاها الإمام مسند الهند عبد العزيز الدهلوي، وحرسها ورعاها، ونماها، وأقام فروعها، وبث شبكتها الإمام الشهيد، ولا تزال تعسل وتؤتي أكلها وثمارها اليانعة.

وقد تناول الأخ العزيز الفاضل مجيب الرحمن عتيق الندوي شخصية الإمام الدهلوي، وآراءه ، ودوره في الإصلاح والتجديد، وحاول أن يختصر مباحث واسعة، ومجالات ومناحي كثيرة، حول هذه الشخصية الجليلة، وآرائه في مواضع كثيرة، إذ كان دوره التجديدي والإصلاحي شاملا للإسلام، دينا ودولة، عقيدة وسلوكا، عبادة ومعاملة، وفي مختلف مجالات الحياة، وقد وفق في هذا الاختصار الجامع، يشهد على ذلك فهرس العناوين الذي استوعب إلى حد كبير مناحي المباحث التي كتب فيها الإمام، وأبدى آراءه الإصلاحية والتجديدية، وأرجو أن يكون هذا البحث القيم المانع مفتاحا لدراسات أوسع وأعمق، مست حاجة المسلمين إليه في عصر طغى فيها الغلو في طوائف والتشدد والتنطع، كما غلب التساهل والتسيب والتنصل، وكلا طريقي الطائفتين لا يقرهما نظام الإسلام المتزن العادل الذي نجده عند الإمام الدهلوي وآخرين من أمثاله من المصلحين والمجددين، كالعز بن عبد السلام، والشاطبي، وابن خلدون ، وابن القيم وغيرهم من فقهاء الإسلام وحكمائه، وأدعو الله –

تعالى– أن يوفق المؤلف الشاب النابه للبحث والتحقيق المزيد، وأن يكتب عن خلفاء الإمام وتلامذته، ودورهم العظيم في الأجيال التالية، وصلى الله على النبي وآله وصحبه وسلم.

وكتبه / سلمان الحسيني الندوي

26/شوال 1433هـ ندوة العلماء – لكناؤ

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد!

فإن الدراسة والنظر في صفحات مشرقة من حياة العظماء والسلف هي التي تكون منارة طريق ومعالم سبيل للخلف، كما أن حياتهم تحمل دروسا كثيرة وعظات وتجارب واسعة في مجالات شتى من الدعوة والإصلاح والتعليم والتربية، ومن فوائد دراسة تاريخ الفكر والدعوة والإصلاح والتجديد أنها تقوي العزائم، وتشحذ الهمم، وتنفخ الروح والقوة، وتبعث في النفس الصبر والصمود، ولنا أن نستلهم ذلك من قول الله سبحانه وتعالى: (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) كما أن وجود هؤلاء العظماء والمصلحين الدعاة خير دليل على خلود هذا الدين، وتدفقه بالحيوية والنشاط في كل عصر ومصر، وصلاحه لكل زمان، وعلى أن شجرته لا تزال تثمر وخليته لا تزال تعسل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإن شخصية الإمام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوي شخصية فذة نادرة عملاقة، شخصية جامعة بين العلم والعمل، والتعليم والتزكية،

والروح والعاطفة، والدعوة والجهاد، قلما يجود الزمان بأمثاله، وهو الذي جمع العلم والفضل من جوانبه، أعجبت بالإمام الدهلوي وشخصيته وفكره منذ زمن الطلب، ويسعدني أن أقدم بعض الأوراق من حياته وفكره وآراءه،

وأقدم خالص الشكر والتقدير إلى فضيلة الأستاذ الشيخ الكريم أبي يوسف سلمان الحسيني الندوي الذي يرجع إليه الفضل والمنة بعد توفيق الله سبحانه في الأعمال العلمية والبحث والتحقيق، والذي استعطت أن أقوم بمثل تأليف هذا الكتاب تحت إشرافه الكريم، فجزاه الله خيرا، ونفع به العباد والبلاد، ونسأل الله سبحانه أن يوفقنا لكل ما يحبه ويرضاه، ويجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، ويحشرنا في زمرة عباده الصالحين، وصلى الله على النبي الكريم.

مجيب الرحمن عتيق الندوي

معهد الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي للدعوة والفكر الإسلامي

15 / محرم الحرام 1434هـ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه، أما بعد

وقد أرسل الله إلى الناس رسُلًا يهدونهم إلى الصراط المستقيم، والدين القويم، وختمهم بسيد الأنبياء سيدنا محمد صلوات الله عليه، فبلَّغ صلى الله عليه وسلم رسالة ربه أحسن ما يكون البلاغ، وأدى أمانة الدين أحسن ما يكون الأداء، ثم حمل الأمانة من بعده رجالٌ اصطفاهم الله من خيرة عباده، واختارهم لتبليغ دينه، ووراثة نبيه الخاتم صلى الله عليه وسلم، وظلَّتْ هذه السلسلة تتواصل إلى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومعلوم أن من حمل هذا العلم فقد حمل الأمانة والوراثة عن النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولهذا استحقت الدعوة الإسلامية هذا الشرف المجيد، واستحق المشتغلون بها تكريمًا خاصًّا، ومِن هنالك يجب على الدعاة والعلماء والشباب الاهتمام بسِير وتراجم العلماء الصالحين، والدعاة المجددين، والوقوف على جهودهم الدعوية، ولا شك أن ذكر الدعاة وسِيَرهم يَشحذ الهِمة ويقوي العزيمة؛ لأن النفس الإنسانية تميل إلى المحاكاة؛ كما أشار إليه

ربنا تبارك وتعالى في كتابه، فقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

يقول الشيخ أحمد مصطفى فضلية:

"ولا شك أن الاهتمام بسير العلماء فيه خيرٌ كثير للشبيبة المؤمنة؛ ليجدوا في حياة العلماء خير قدوة وأسوة بعد نبينا الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا خُلق عظيم اهتمَّ به العلماء جيلًا بعد جيل، فكان لأُمتنا المسلمة دون غيرها من الأمم هذا الكم الهائل من كتب التراجم التي تُعد دليلًا على غناها بالعلماء، ممن لهم مواقف مشهودة في الدفاع عن دين الله" ([1])

يقول الشيخ علي بن عبدالله الزهراني في مقدمة كتابه":مواقف إيمانية من حياة الصالحين"؛ حيث يقول: (لا شك أن الاطلاع على سير الصالحين، ومعرفة أخبار المتقين، وآثار الطائعين – له في النفس آثار مدهشة، وعلامات بيِّنة، وآيات واضحة؛ فهو يحيي القلوب الميتة، ويُزيل قسوتها، ويزيل الصدأ الذي تراكَم عليها، ويُشعل في النفوس جَذوة الإيمان، ويصد عنها كيد الشيطان، ويُلَيِّنُها لطاعة الرحمن، ويُذهب عنها ما تراكَم عليها مِن غبار الغفلات، وما تعاقَب عليها مِن

[1] (العلامة موسى لاشين حياته وجهوده في خدمة الإسلام، (ص 29)

صدِّ الشهوات، وما علِق بها مِن شُؤم الخطيئات، فيعود إليها بريقُها الذي خبَت أنوارُه، وصفاؤها الذي مُحِيَت آثاره"

جاء في كتاب: (فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار القرن الحادي عشر)

"إن الاشتغال بنشر أخبار فضلاء العصر – ولو بتواريخهم – من علامات سعادة الدنيا والآخرة؛ إذ هم شهود الله في أرضه، وبذكر الله ينزل الرضوان، وبذكر رسوله تَنزل المحبةُ، وبذكر الصالحين تنزل الرحمة، وهم في السعادة جلساءُ مَن ذكرَهم، ومَن أحبَّ شيئًا أكثر مِن ذكره، ويُرجى لمن أرَّخ لجماعة أن يَشفع السعيد منهم للشقيِّ" ([1])

ولا شك أن الاطلاع على هذه الجوانب من سير الصالحين وتراجم الدعاة مما يربي الشباب، ويعالج فتور الهمم، ويغرس في النفوس معاني القيم النبيلة والسلوك الرائع، ويعود بفوائد مهمة على الدارسين والعاملين في مجال الدعوة،

[1] فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار القرن الحادي عشر؛ ص 36

ومما يسرني أن أقدم هذا الكتاب عن حياة الإمام المجدد ولي الله الدهلوي رحمه الله مرة ثانية، وأرجو من الله أن يعم نفعه للعباد والبلاد، وأن يوفقنا لمحابه من الأعمال، والاهتداء بهدي الصالحين، والاستيضاء بروائع مآثرهم في الدعوة والإصلاح، وأن يتقبل منا صالح الأعمال، وهو الموفق، وصلى الله على النبي الأمي وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مجيب الرحمن عتيق الندوي

15/ فبراير 2020م

المدخل إلى الموضوع

الحمد لله العلي الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم وعلى آله وأصحابه الغر الميامين القادة إلى السبيل الأقوم ومن دعا بدعوتهم واهتدى بهديهم من الشعوب والأمم،أما بعد!

فإن هذا الدين الذي كتب الله له الخلود والبقاء إلى يوم القيامة يحمله من كل خلف عدوله ينفون عنه تحر يف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، إنه يزدان تاريخه المجيد بروائع أولئك المجددين المخلصين والدعاة والمجاهدين في سبيل الله الذين قاموا بالتجديد والإصلاح والجهاد ومكافحة البدع والخرافات في كل زمان ومكان، وأعادوا هذا الدين غضا طريا بعد ما أصيب بالأفكار الدخيلة والنظريات الفاسدة، وقاوموا المبتدعين والمبطلين وناضلوهم في عقر دارهم، وتركوا في تاريخ التجديد والإصلاح والبطولات والمكرمات ما كان غرة مرموقة على جبين التاريخ ، يهتدى في الظلماء بنورهم ويقتدى في التجديد والإصلاح بهداهم.

وإن الإمام الدهلوي من أولئك النوابغ والعباقرة الذين قلما يجود الزمان بأمثالهم لقد كان مجددا مصلحا،مجتهدا صدع بالحق وجهر بإحياء السنة ودعا إلى الطريق الوسط العدل المتزن في أوضاع خطيرة وظروف قاسية من جميع النواحي، ولاشك أن للبيئة أثرا ملموسا كبيرا في نشأة الإنسان وتكوين عقليته وفكره، وهي حقيقة لا تجحد، (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) وندرك من خلال نظرة إجمالية على ذلك قيمة الجهود الإصلاحية التي بذلها الإمام الدهلوي ،كما نستطيع أن ندرك أهمية المنهج الذي قام به يوم ذاك،

نظرة إجمالية على الأوضاع السياسية والعلمية والدينية:

أما الناحية السياسية فكانت الدولة المغولية بعد وفاة الملك العادل "أورنغ زيب العالمگير"([1]) بدأت تضعف يوما فيوما، وأخذ

([1])هو السلطان العظيم، و المجاهد الزاهد : أبو المظفر محي الدين محمد أُورنك زيب عالم كير، سلطان مملكة شبه القارة الهندية وما حواليها في القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الهجري . حتى لقَّبه الشيخ الأديب علي طنطاوي بـ "سادس الخلفاء الراشدين" ولد في (15 من ذي القعدة 1028هـ = 24 من أكتوبر

1619م) وتوفى في(: 28 من ذي القعدة 1118 هـ = 20 من فبراير 1707م ،وهو أحد أحفاد : تيمور لنك ! الطاغية الماغولي الشهير! ، تولى زمام الحكومة المغولية بالهند عام 1069هـ1669م ، بعد معارك نازفة بينه وبين المفسدين من إخوته وأقاربه ، ولما جلس على عرش المملكة الهندية بدأ يسير على منهاج النبوة الأولى في إقامة شعائر الدين ، وإنصاف المستضعفين ، ورفع راية الجهاد على سائر المرتدين والمعاندين ، وأخذ الجزية من كفرة الهندوس وغيرهم ، مع القيام على حوائج الأرامل والثكالى والفقراء من المؤمنين ، كل هذا مع الزهد والعبادة ، ونشر العلم والعلوم بين سواد الناس .، والقضاء على كثير من البدع والخرافات التي كانت ذائعة في مملكته العريضة جدا، وقد كان : (أورنك زيب) مع كونه ملكا عظيما : فقد كان عالما حنفيا جليلا ذا قدم راسخة في أصول مذهب الأحناف ، وبأمره أُلِّف كتاب : ("الفتاوى الهندية") ذلك الكتاب المشهور بين أهل العلم قاطبة ، وقد نُسب إليه بعد ذلك : فقيل عنه : (الفتاوى العالمكيرية) يعني نسبة : إلى عالمكير ، وهو لقب السلطان : (أورنك زيب) كما مضى. وقد كان شاعرا فصيحا أيضا ، مع المعرفة الواسعة بفنون الأدب والشريعة. قال عنه المرادي في ترجمته من كتابه : « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر »: (سلطان الهند في عصرنا، وأمير المؤمنين وإمامهم ،وركن المسلمين ونظامهم ، المجاهد في سبيل الله ، العالم العلامة الصوفي العارف بالله ، الملك القائم بنصرة الدين، الذي أباد الكفار في أرضه ، وقهرهم وهدم كنائسهم ، وأضعف شركهم ، وأيد الإسلام وأعلى في الهند مناره ، وجعل كلمة الله هي العليا ، وقام بنصرة الدين وأخذ الجزية من كفار الهند ،ولم يأخذها منهم ملك قبله لقوتهم وكثرتهم ! وفتح الفتوحات العظيمة ، ولم يزل يغزوهم ، وكلما قصد بلداً سلكها ، إلى أن نقله الله إلى دار كرامته وهو في الجهاد ، وصرف أوقاته للقيام بمصالح الدين وخدمة رب العالمين من الصيام والقيام والرياضة التي لا يتيسر بعضها لآحاد الناس فضلاً عنه ! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،وكان موزعاً لأوقاته : فوقت للعبادة

الأمـراء والـولاة يخرجـون عليهـا مـن كـل حـدب ينسـلون طمعـا فـي الاستيلاء ورغبة في الكرسي والسلطان، ورفعت الفتن رأسها وخيمت الفوضـى أطنابهـا، وكانـت طائفتاالسـيخ والمرهتـة ([1]) مـن أشـد النـاس

،ووقت للتدريس ، ووقت لمصالح العسكر ، ووقت للشكاة ، ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته ، لا يخلط شيئاً بشيء ! والحاصل إنه كان حسنة من حسنات الزمان ، ليس له نظير في نظام سلطنته ولا مُدانِ" وقال عنه العلامة الأديب الشيخ علي طنطاوي في كتابه : « رجال من التاريخ : « ووفِّق إلى أمرين لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين – :

الأول : أنّه لم يكن يعطي عالما عطية أو راتبا إلا طالبه بعمل , بتأليف أو بتدريس , لئلا يأخذ المال ويتكاسل , فيكون قد جمع بين السيئتين أخذ المال بلا حق وكتمان العلم!!

الثانى : أنّه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية فى كتاب واحد ، فوضعت له وبأمره وبإشرافه وتحت ناظره كتاب "الفتاوى الهندية – العالمكيرية" على المذهب الحنفى (.....

وبعد : 52 سنة من حكمه على البلاد ، وبعد أن بلغ من العمر ما يربو على تسعين عاما ! من الجهاد والعدل والعبادة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : جاءه أمر الله الذي لا مردَّ له في : (الثامن والعشرين من ذي القعدة 1118 هـ = 20 من فبراير 1707م) فمات راضيا عن الله صابرا

(1) السيخية ديانة بدأت في شمال الهند في القرن السادس عشر بالدعوة لاتباع تعليمات غورو ناناك وخلفائه التسعة، والسيخ أتباع هذه الديانة، ظلموا المسلمين في الهند وعذبوهم مرات وكرات، وكانوا أشد فتكا وهمجية، لا سيما بعد تحرير البلاد من براثن الإنكليز، وتقسيم البلاد، والمرهتة أيضا صنف من الهندوس

ظلما وعدوانا وقتلا وتدميرا، وكانت العاصمة "دهلي" عرضة للسفك والقتل والنهب والسلب، وأصبحت الدولة المغولية التي كانت مثل دوحة عظيمة استظل الأمم والأجيال بظلها الوارف مدة ومابقي منها الآن إلاالجذع الذي لم تزده الأيام إلا ذبولا.

يقول صاحب "سير المتأخرين" وهويتحدث عن زعيم حركة السيخية" غرو غوبندسنغ"([1]): كان يغير على قرى المسلمين إغارة شديدة دون أي هوادة، ويضع فيهم السيف فلا يرحم صغيرا ولا كبيرا، ولايترك أحدا حتى الأطفال الرضع والنساء الحوامل، وأما "المراهتة" فيقول عنهم "آزاد بلغرامي"([2]) في كتابه "خزانه عامره" : "ليعلم

---

(1) هو المعلم أو القائد العاشر للسيخ، هو الذي نظم السيخية، وحولهم من طائفة دينية إلى قوة وعسكر، وألزم عليهم الاحتفاظ بالأشياء الخمسة: الخنجر، الشعر، العمامة، المشط، السوار.

(2) آزاد البلگرامي (ت/ 1200هـ) هو الشيخ العلامة مير غلام علي آزاد البلغرامي الحسيني الواسطي. كان ميلاده في بلدة «بلغرام» الهندية في الخامس والعشرين من شهر صفر، عام 1116هـ /1704م. أكمل دراسة الكتب الدراسية على السيد طفيل محمد. ودرس على جده لوالدته الشيخ عبد الجليل البلغرامي علومَ العربية، والسيرة النبوية، والحديث الشريف، والشعر العربي والفارسي. أدى فريضة الحج إذ تشرف بزيارة الحرمين الشريفين سنة 1151هـ، فلقي علماءهما واستفاد منهم، ثم قفل إلى

الجميع أن الفرقتين البراهمة والمرهتة تريدان السيطرة الغاشمة على جميع وسائل المعاش، ويريدون أن يستحوذوا على البلاد دون أن يشترك معهم أحد" ثم يستمر ويقول:

"أغار المرهتة على دهلي وأكثروا فيها الفساد والنهب والقتل والتدمير فجاسوا خلال الديار، حرقوا الأسواق وهدموا البيوت"([1])

الهند، واستوطن مدينة «أورنغ آباد» في جنوب الهند. ثم وافته المنية في هذه الحاضرة سنة 1200هـ/1885م، بعد أن ملأ الدنيا بمؤلّفاته التي من أهمها: ضوء الدراري في شرح صحيح البخاري، وتسلية الفؤاد (شعر)، وتراجم العلماء، وشفاء العليل، وغزلان الهند، وسرور آزاد، واليد البيضاء، والخزانة العامرة، ومآثر الكرام في تاريخ بلغرام، وهذه الثلاثة الأخيرة بالفارسية، والسّبعة السيارة وهي سبعة دواوين شعرية عربية له. وأهمّ كتبه: سبحة المرجان في آثار هندوستان. كان مولانا غلام علي آزاد من الشعراء الكبار الغزيري الإنتاج الشعري في اللغة العربية، وقد غلب على قريضه النظمُ في المديح النبوي مما جعل ملك اليمن في زمانه يلقبه بـ «حسّان الهند» وكان يقال: «إنّ الهند لم ينظم فيها أحد القصائد العربية على النمط الذي جاء به العلامة غلام علي آزاد»/ أنظر: بحث الأستاذ اجتباء الندوي في مجلّة البعث الإسلاميّ، العدد 5، المجلد 52، محرّم وصفر 1428هـ/ فبراير ومارس 2007م، ص: 80.

(1) أنظر: مجلة الفرقان ، العدد الممتاز عن الإمام الدهلوي

ويقول الشيخ المؤرخ الشهير "محمد ميان" في كتابه "علماء هند كا شاندار ماضى" (الماضي المشرق لعلماء الهند) وهو يذكر ملخص تلك الأوضاع الخطيرة:

"إن القرن الثامن عشر قرن تدفق فيه السيل العرم من الفتن والاضطرابات عندما كان سلطان المسلمين السياسي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكاد يأفل نجمهم الذي تألق في هذه الديار إلى ألف عام، توفي الملك العادل "أورنغ زيب العالمگير" وكان هو آخر ملوك المسلمين الذي أقام الدولة على منهاج الخلافة الراشدة، وبعد وفاته أظل على البلاد الهندية الاستعمار البريطاني الغاشم الجبار، ثم استشهد المجاهد البطل السلطان "تيبو" ([1]) بعد كفاح وجهاد ومعارك

(1)تيبو سُلطان (1750–1799م) هو حاكم ولاية ميسورالهندية الجنوبية خلال الفترة من 1782م إلى 1799م، ولد تيبو سلطان في ديفنهالي، بولاية ميسور، فيما يُعرف الآن بولاية كرناتاكا الهندية، وكان السلطان يمتاز بمزايا كثيرة في تاريخ الهند الإسلامي ، وإن له شخصية بارزة وجهودا مشكورة لرفع مستوى الحكومة الإسلامية في الهند ، وعندما اضمحلت حكومة المغول في الهند وجعلت قوة الإنجليز تنمو وتتقوى فيها قام حيدر علي يقاومها حتى أحس منه الإنجليز خيفة ، ولم يزل الأمر بيده طول حياته في الهند الجنوبية ، وبقيت حكومة الإنجليز وطاقاتهم محدودة في مدارس فقط ، وبعد وفاة حيدر علي آل الحكم إلى ابنه الشجاع المجاهد تيبو سلطان الذي دعم أسس حكومته في ميسور والهند الجنوبية ، ولكن الإنجليز علموا أن حكومته هي أكبر خطر لنفوذهم وسيطرتهم على الهند ، فجعلوا يأتمرون

دامية مع الاستعمار، فقال القائد الإنجليزي أمام جثته: "ومنذ اليوم أصبحت الهند لنا" فاندلعت في الهند اضطرابات سياسية، وثارت

فيما بينهم عن استئصالها وقمع أصلها وهدم بنيانها ، وقد ثاروا على تيبو مرارا ، ولكنهم لم ينجحوا في مرامهم، وذاق الاستعمار الطاغي البرطاني هزيمة تلو الهزيمة من هذا البطل المجاهد العظيم، وإن مملكته كانت مملكة إسلامية ، فقد فتح للمسلمين مناصب جليلة ، ولم يكن لغير المسلمين تدخل في حكومته ، وكان يقضي أكثر أوقاته في العبادة والتلاوة والتسبيح وما إلى ذلك ، ولكن غدر أمرائه وخيانتهم ساقت الحكومة إلى الهزيمة والانهيار ، ولا شك أن الغدر والخيانة من مرضى المسلمين في البلاد كلها ، ومن أجل ذلك وحده خسروا شأنهم وفقدوا قيمتهم ، وأصبحوا بحيث لا ينظر إليهم العدو إلا بنظرة كلها شك وكلها ارتياب.

ولكن تيبو سلطان لم يزل بطل الحرية والإسلام في تاريخ الهند الزاهر ، وقد قال شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال فيه : (أنت وارد في وادي شوق فلا تبحث عن المنزل أبدا ، ولا تقبل على المحمل ولو كانت فيه ليلى)

وإن السلطان تيبو كان يحب العلم والعلماء ، وكانت عنده مكتبة كبيرة محتوية على كتب كثيرة نادرة في (سرنكابتم) ولما فتح السلطان (حكومة ادهوني) ووجد فيها مكتبة بسالت خان فزادها إلى مكتبته ، وأصبحت مكتبته من أهم المكتبات في زمانه ، أما الكتب التي ألفت تحت إشرافه فهي (تحفة المجاهدين) و (مفرح القلوب) ولم تسترع هذه المكتبة انتباه أحد بعد وفاته حتى مضت عليها ستة أعوام ، ثم عين بياترك وبعده ميجر استارت الذي بذل جهودا مشكورة في جمع الكتب المنتشرة ، ورتب فهارس المخطوطات العربية والأودية ، وقد طبع هذا الفهرس سنة 1098م من كيمبردج ، ومن العجب أن الإنجليز لم يتركوا تراث تيبو القيم في الهند ، بل ذهبوا به إلى إنجلترا فلم تبق في الهند منه إلا كتب معدودة في مكتبة آسيا. وتوجد في لندن ذخيرة من هذه الكتب النادرة يبلغ عددها 687 كتابا.

المصدر : مجلة الحضارة الإسلامية . المجلد الثامن 1967–1968

الفتن والفوضى الخلقية والدينية، ودخلت الهند في حروب أهلية ضارية، وكان الطابع الذي يغلب ذلك العصر هو "عدم الاستقرار" حتى تولى في حياة الإمام الدهلوي عرش الحكومة عشرة ملوك، قتل بعضهم أبشع قتلة وسمل في عيونهم، وأصبح المسلمون كقطعان من الغنم بين ذئاب ضارية لا راعي لها، وقامت فرق ضالة هدامة من المراهتة والبراهمة بعدوان ظالم بشع وقتل ونهب وانتهاك للحرمات، واستغل الاستعمار البريطاني هذه الفرصة وعمل في تنفيذ خطته بالدهاء والمكر "فرق تسد" (Divide&Rule) ، لقد شهد الإمام الدهلوي هذه الأوضاع بعيني رأسه، وكان يومئذ في ريعان الشباب فتململ وعاد قتادا عنده كل مرقد، يقول في إحدى رسائله باللغة الفارسية:

"احوال هند برما مخفى نيست كه مولد ومنشأ فقير است،بلاد عرب نيز ديديم، واحوال مردم ولايت از ثقات اينجا شنيديم"([1])

"إن الأوضاع التي تمربها الهند ليست خافية علي، فقد ولدت وترعرعت فيها، ورأيت أحوال البلاد العربية بنفسي، وسمعت عن بلاد الغرب ممن أثق بهم"

([1]) " شاه ولي الله كي سياسي تحريك" (الحركة السياسية للإمام الدهلوي) ص: 14

أما الناحية العلمية فنستطيع أن نقول بصفة عامة: إن هذا العصر كان عصرالجمود العلمي والجدب الفكري، وكانت الظاهرة التي تسوده هي العكوف على ما وصل إليهم من تراث الجيل السابق، وكان ذلك رأس مالهم، حتى عكفوا على كتب المتأخرين وفتاويهم دون عرضها على الكتاب والسنة، فقد اشتغلوا عنها بالعلوم العقلية والفلسفية اليونانية والمنطق والجدل والمناظرة، أما العقيدة فكانت متأثرة بالكتب الكلامية والمنطقية وتدرس حسب المذهب الأشعري والماتريدي.

وأما الناحية الدينية والخلقية فكانت أسوأ حالا مما سبق، لأن الدين في مثل هذه الظروف القاتمة إما أن يكون فريسة للبدع والخرافات والعقائد الباطلة وإما أن يكون منكمشا منزويا يلجأ إلى الكهوف والمغارات والزوايا يفر به أهله ضنا بأنفسهم وفرارا بدينهم، فقد كانت البدع والخرافات منتشرة ذائعة ومرتعا خصبا، ترى أهل الزوايا والعاكفين عليها أنهم قد فقدوا الروح وانعزلوا عن ميدان الدعوة والكفاح واعتنقوا بالعادات والتقاليد وأحبوا الرسوم والمظاهر.

في مثل هذه الظروف اتجهت رحمة الله تبارك و تعالى إلى الهند وانتخبت ولي الله بن عبد الرحيم إماما للتجديد و الإصلاح ونشر التوحيد وإحياء السنة والدعوة إلى لله.

واجه الإمام الدهلوي مجتمعا مبعثر الفكر مشتت البال مضطهدا من قبل الحكام الجائرين، مجتمعا جامدا راكدا قانعا بما عنده من العلوم والأفكار، مولعا بالخرافات والمحدثات، بعيدا عن الكتاب والسنة، وقد كان المجتمع في حاجة ملحة إلى إمام رباني ومصلح اجتماعي، قوي الإيمان عميق الفهم، يجس نبض المجتمع جسا صحيحا ويصف دواء شافيا، يضرب على الوتر الحساس ويعيد الأمور إلى نصابها، والمياه إلى مجاريها، وينهض بإصلاح شامل متكامل، فنهض الإمام الدهلوي لهذا المنصب الجليل، وقدر الله له النجاح العظيم على هذا الدرب، ولقد أشار المحدث الشيخ محمد منظور النعماني ([1]) إلى مكانة الإمام الدهلوي بأوجز عبارة وأقوى أسلوب قائلا:

---

(1) الشيخ العلامة منظور أحمد النعماني رحمه الله عالم هندي موسوعي وداعية كبير والذاب المتحمس عن الدين المحمدي، والغيور على السنة النبوية والحامي لها، ولد الشيخ العلامة محمد منظور النعماني رحمه الله في بيت تتضوع طيوب الإيمان في كل زاوية من زواياه، وتلوح صور العبادة والذكر على جبين كل ساكن من سكانه في بلدة

"يجب على كل من يؤلف تاريخ أعلام الإسلام و رجاله في أي فرع من فروعه أن لا ينسى الإمام الدهلوي، وإلا يعتبر جاهلا أو خائنا"([1])

سنبهل من ولاية أترابراديش، وتلقى التعليم الابتدائي من قراءة القرآن وتجويده وتعلم اللغة الأردية والفارسية ثم العربية ، تخرج الشيخ النعماني رحمه في جامعة ديوبند وتلقى علوم الفقه والحديث والتفسير من كبار أساتذتها وشيوخها، ومن أساتذته الكبار: الشيخ الإمام أنور شاه الكاشميري رحمه الله، والشيخ العلامة المفتي عزيز الرحمان والشيخ سراج أحمد الرشيدي وغير هؤلاء. وقام الشيخ بدور فعال في مجال الدعوة والإصلاح والرد على الفئات الباطلة المختلفة والحركات الناشطة الهدامة، كما اختار الشيخ النعماني رحمه الله للدعوة والإصلاح طريق الكتابة والصحافة، فأسس مجلة "الفرقان" الشهرية هادفاً بها إصلاح العقائد والأفكار وتصحيح النظريات والتربية الدينية لعامة المسلمين والتوعية الإسلامية للشباب المسلم في الهند، وقد ظهر لعمله وجهوده هذه أطيب الأثر في مختلف الأوساط، وله مؤلفات قيمة نافعة، مثلا: (1) معارف الحديث، (2) ما هو الإسلام؟ (3) القرآن يتحدث إليك (4) الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام، (5) كيف تؤدي الحج؟، (6) الدين والشريعة، (7) سيرة مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله،(8) الدعاية المكثفة ضد الشيخ محمد بن الوهاب النجدي رحمه الله والرد على ما أثير حوله من الإفتراءات والإشاعات الكاذبة، (9) بوارق الغيب، وغيرها من الكتب والمؤلفات، استأثره الله برحمته بعد حياة عامرة بالدعوة والإصلاح، فوافته المنية لثلث بقين من شهر ذي الحجة سنة 1417هـ الموافق لخمس خلون من شهر مايو سنة 1997ء.

(1) مجلة الفرقان العدد الممتاز عن الإمام الدهلوي

يقول الشيخ الإمام أبوالحسن علي الحسني الندوي في رجال الفكر والدعوة في الإسلام:

"وبالجملة فإن الهند في القرن الثاني عشرالهجري كانت قد تردت من الناحية السياسية والإدارية والخلقية والاجتماعية والاعتقادية إلى حد كبير في الحضيض ووصلت إلى آخر نقطة من الانحطاط والانهيار، وهي التي تكون مرحلة خطيرة مؤسفة لسقوط البلدان الإسلامية، وانحطاط المجتمع المسلم، وقد صور العلامة السيد سليمان الندوي هذه الأوضاع بمجموعها في إحدى مقالاته تصويرا بليغا موجزا، قائلا :

"لقد كانت شمس الدولة المغولية في أفول، وكان للعادات والتقاليد الجاهلية في المسلمين صولة وجولة ، فكان الدواويش والمشايخ الكاذبون المصطنعون متربعين على دست مشايخهم في رباطهم، جالسين يوقدون الشموع على مقابرهم، وكانت جنبات المدارس ترتج بأصداء الفلسفة والمنطق، وكان التقيد بالنصوص الفقهية والالتزام الحرفي في الفقه والفتاوى شعار كل مفت وفقيه، وكان التحقيق والبحث في المسائل الفقهية جريمة كبرى في جانب الدين ، وكان الخاصة فضلا عن العامة

جاهلة عن معاني القرآن الحكيم ومطالبه، وأحكام الأحاديث النبوية وإرشاداتها وأسرار الفقه ومصالحه"([1])

يقول أحد من العلماء المعاصرين: " وإن صراع القوى المختلفة والغزوات المتعاقبة التي شهدها الحكم المغولي وهو ينقرض مما عَمِلَ على قطع أوصال نظام الحكم، والنيل من تماسكه، والفتِّ في عضده، وما قام به الشاه ولي الله من المآثر والمساعي الحثيثة يضيق عنه هذا المقام..... وإن الانهيار السياسي الذي مُنِيَ به المغول جرَّ على المسلمين ويلاتٍ وويلاتٍ: من التخلف العلمي والعقلي والفكري، بالإضافة إلى الشقاء الروحي والخلقي، فنظر الشاه ولي الله الدهلوي في الأوضاع – التي كان يعيشها – نظرةً ملؤها الحكمة، والتبصر بالعواقب، ودرَسَها دراسةً واعيةً متأنية، فحذر المسلمين، وأيقظهم من سباتهم، فانفجرت بجهوده المشكورة ينابيعُ الخير و البركة، وعمت نفحاته وأروتْ غلةَ خلقٍ من الناس، و سدَّت حاجتهم إلى علم الحديث النبوي. فما يشهده شبه القارة الهندية– اليوم – من سيادة العلم، وانتشار الوعي الديني، والتحاشي عن مظاهر

(1) مقالات سليمان نقلا عن رجال الفكر والدعوة للندوي 4/ 57

الشرك والبدع، والنفور منها؛ إن كل ذلك إلا من حسنات الشاه ولي الله الدهلوي، وما قام به من الأعمال التجديدية و الإصلاحية" ([1])

عقلية مبتكرة تبتكر العلاج:

بعد ما شاهد الإمام الدهلوي هذه الأوضاع الحالكة الشديدة في الهند، وبعد زيارته للحجاز الشريف عندما رأى أوضاع العالم العربي فكر في الخروج عن هذا المأزق وعلاج هذه الداء العضال والخروج من المشاكل والمتاعب التي يواجهها المسلون آنذاك فرأى أنه لايفيد إصلاح عيب من عيوب المجتمع ولا تغيير نظام دون نظام ولا يؤثر علاج داء من الأدواء، فقال بكل قوة وصراحة: إنه لابد من ثورة جامعة شاملة في جميع المجالات السياسية والغقتصادية والتعليمية والاجتماعية، ولا بد من "فك كل نظام" ولا بد من اقتلاع جذور الفساد الذي سرى إلى نظام الحياة ويجب قطع مادة الشر الذي عم وشمل الحياة كلها، ثم تطبيق النظام الإسلامي من جديد على شعب الحياة كلها، يقول في حجة الله البالغة:

([1]) انظر: مجلة الداعي الصادرة من دارالعلوم ديوبند ، العدد 9– 10 رمضان –شوال 1433هـ ،

"فالمدن الفاسدة التي يغلب عليها نفوس سبعية ويكون لهم تمنع شديد إنما هو بمنزلة الأكلة في بدن الإنسان، لا يصح الإنسان إلا بقطعه، والذي يتوجه إلى إصلاح مزاجه وإقامة طبيعته لابد له من القطع، والشر القليل إذا كان مفضيا إلى الخير الكثير واجب فعله" ([1])

لقد كانت حياة الإمام حياة معلم ومزك وداع إلى الله، ومصلح وشارح للشريعة الإسلامية، ومحي للسنة ومكافح للبدع والخرافات والتقاليد والأعراف غير الإسلامية، ومجاهد في سبيل الله، وقد جمع في حياته هذه الجوانب المختلفة للعمل والكفاح، صدع بالحق ودعا إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، وما اقتنع الإمام الدهلوي بإصلاح جزوي فرعي للنظم المنهارة والقواعد المتزلزلة للحياة، وبتغيير عادة من العادات بل أقام حركته الإصلاحية التجديدية على أساس إصلاح شامل، واقتلاع مادة الشر والفساد وثورة جامعة على الأوضاع وفك كل نظام من نظم الحياة الموجودة آنذاك، ومهد الإمام الدهلوي الطريق إلى قيام جماعة تحدث هذه الثورة، وتربى على يديه جيل كريم على أساس هذه الفكرة حتى قيض الله لهذه الحركة عباقرة الدعوة

(1) حجة الله البالغة 157/2

والجهـاد والتجديـد والإصـلاح مـن الشـيخ المجاهـد الشـهيد عبقـري الدعوة والجهاد والكفاح أحمد بن عرفان([1])

(1) ولد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد النور في غرة محرم 1201 الهجري من أسرة كريمة في "راي بريلي" من أعمال لكناؤ، ينتهي نسبه إلى سيدنا حسن بن على رضي الله عنه، ونشأ في تصون تام وتأله واقتصاد في الملبس والمأكل ، ولم يزل على ذلك خلفا صالحا برا تقيا ورعا عابدا زاهدا ناسكا صواما قواما ذاكرا لله عزوجل وقافا عند حدوده رجاعا إليه في سائر الأحوال، لقد بايع الشيخ المحدث سراج الهند عبد العزيز الدهلوي رحمه الله وأخذ عنه الطريقة حتى نال حظا وافرا من العلم والمعرفة وفاق الأقران، وأتى بما يتحير منه أعيان البلدة في العلوم والمعارف، ثم غلب عليه شوق الجهاد في سبيل الله فذهب إلى معسكر الأمير "نواب خان" ولبث عنده بضع سنين، كان يحرضه على الجهاد، فلما رأى منه أنه يضيع وقته دون جدوى تركه ورجع إلى دهلي، وشد المئزر لنصرة السنة المحضة والطريقة السلفية الخالصة، لقد دعا إلي الاعتصام بالكتاب والسنة والرجوع إلي الطريقة السلفية الخالصة،وقام بجولات دعوية إصلاحية في مختلف المناطق والأرجاء، فتاب على يده عدد كبير لايحصي، ورجعت القلوب المستعصية الجافة إلي الله تبارك و تعالى، و قضى حياته في الدعوة والإصلاح والجهاد والكفاح ، سافر إلي الحجاز و حج وزار البيت، لقد أفتى بعض العلماء في الهند بإسقاط فريضة الحج، فرد الإمام الشهيد على هذه الفتوى التي كانت مصدرها من وحي النفس والشهوة والشيطان، و سافر إلي الحجاز للحج، و كان معه سبعة وخمسون وسبع مأة شخص من أصحابه، فمروا في هذه الرحلة المباركة بمناطق كثيرة من "راي بريلي" إلي "كلكته" ، فدخل في بيعته خلق لايحصون بحد وعد، وحصل له الوقائع الغريبة وكشوف وكرامات في ذلك السفر المبارك ، ثم بعد رجوعه بعث الشيخ إسماعيل الشهيد والشيخ عبد الحي البدهانوي من كبار أصحابه إلي بلاد شتى للتذكير و الإرشاد، فدارا البلاد، وهدى الله بهما خلقا كثيرا من العباد. استشهد الإمام أحمد وصاحبه الشيخ إسماعيل وكبار أصحابهما في 24 من ذي القعدة عام 1246 من الهجرة 6/من مايو/ عام 1831م"

والشيخ المجاهد إمام التوحيد وبطل الدعوة الإسلامية الشهيد إسماعيل الدهلوي حفيد الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي([1])

راجع لسيرته: نزهة الخواطر / عبد الحي الحسني، إذا هبت ريح الإيمان / الندوي، سيرة السيد أحمد الشهيد / الندوي، سيرة السيد أحمد الشهيد /غلام رسول، علماء هند كا ماضي/محمد ميان

(1)هوالشيخ العالم الكبير العلامة المجاهد القائد الباسل المغوار الشهيد إسماعيل بن عبدالغني بن الإمام الهمام المجدد المصلح ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي العمري أحد أفراد الدنيا في الذكاء والفطنة والشهامة وقوة النفس والصلابة في الدين، ولد بدهلي لاثني عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومأة وألف،وتوفي والده في صباه فتربى في رعاية عمه الشيخ عبدالقادر بن ولي الله الدهلوي وقرأ عليه الكتب المدرسية، واستفاد من عمه الشيخ رفيع الدين والشيخ المحدث سراج الهند عبدالعزيز الدهلوي أيضا ولازمهم مدة طويلة وصار بحرا زاخرا في المعقول والمنقول، ثم لازم الإمام السيد المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد إلى أن نال الشهادة في سبيل الله معه، أخذ عنه الطريقة وسافر معه إلى الحرمين الشريفين، فحج وزار ورجع معه إلى الهند،كان الإمام إسماعيل الدهلوي داعية موفقا وإماما مصلحا ومجاهدا باسلا، صدع بالحق وإحياء السنة والرجوع إلى طريقة السلف بكل قوة وصراحة، وأحيى معنى التوحيد الخالص في مجتمع مولع بالشركيات والخرافات، ووجه خطابات صريحة إلى كل من العامة وأهل البلاط الملكي، وكان لايبالي في الله لومة لائم ولايخاف ولايحابي ولايداهن، ولأجل ذلك طعن فيه القبوريون والمبتدعون، فإن دعوته وخطاباته وكتاباته كانت سهما مسددا إلى كبد الشركيات والبدع والخرافات وجهليات ذلك الزمن ونعيا لها، لقد قام الشيخ بالجولات الدعوية مع الإمام المجاهد السيد أحمد الشهيد ، وساح القرى والبلاد بأمره سنتين داعيا إلى الله، فانتفع به خلق لايحصى بحد وعد، يقول الشيخ السيد عبد الحي الحسني والد الشيخ أبوالحسن الندوي رحمهما الله في "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" في وصفه : وكان نادرة من نوادر الزمان وبديعة من بدائعه الحسان مقبلا إلى الله بقلبه وقالبه مشتغلا بالإفادة والعبادة مع تواضع وحسن أخلاق وكرم وعفاف وشهامة نفس، وصلابة دين ، وحسن

ورفقاء وأمجاد هذه الحركة الطيبة المباركة، فقامت كبرى الحركات الإصلاحية والجهادية الكفاحية في الهند باسم" حركة الشهيدين" ما شهدت الهند حركة أجمع وأوسع وأعمق أثرا منها، قلبت الوضع السيئ وشحنت القلوب بحرارة الإيمان وأشعلت النفوس بالعاطفة وأقامت دولة شرعية على منهاج الخلافة الراشدة في حدود الهند الشمالية، وبدلت الأرض غير الأرض، وهبت بوجود دعوته ريح

محاضرة وقوة عارضة، وفصاحة ورجاحة، فإذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له في المسائل الدينية بعض شقاق جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار، ويجمع بين الضب والنون، فلا يفارقه إلا وهو عنه راض، وقد وقع مع أهل عصره قلاقل وزلازل وصار أمره أحدوثة، وجرت فتن عديدة في حياته وبعد مماته، والناس قسمان في شأنه، فبعضهم مقصر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعض آخر يبالغ في وصفه ويتعصب له كما يتعصب عليه القسم الأول، وهذه قاعدة مطردة في كل من يفوق أهل عصره في أمره"(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)

وأما أشهر مصنفاته فهي عديدة :"الصراط المستقيم" باللغة الفارسية جمع فيه ما صح عن شيخه السيد الإمام أحمد الشهيد، و"إيضاح الحق الصريح في القبر والضريح" في بيان حقيقة السنة والبدعة،و"منصب إمامت" في تخصيص منصب النبوة والإمامة، وهو كتاب فريد في موضوعه ومما لم يسبق إليه، ورسالة في بحث إمكان النظير وامتناع النظير" وكلها بالفارسية، ومختصر في أصول الفقه باللغة العربية، ورسالة بالعربية في رد الإشراك والبدع مرتبة على بابين، و"تنوير العينين في إثبات رفع اليدين" بالعربية، و" تقوية الإيمان "كتاب مشهور في بيان التوحيد وهو ترجمة الباب الأول من رسالة في رد الإشراك، وقد نقل هذا الكتاب من الأردية إلى العربية سماحة الشيخ أبوالحسن الندوي رحمه الله وأسماه "رسالة التوحيد"

الإيمان والتوحيد الخالص واتباع السنة والحنين إلى الشهادة والعمل بالعزيمة والقيام بالبطولات الإسلامية وتحكيم الشريعة المطهرة في الحياة الفردية والجماعية، وقامت هذه الحركة بمواجهة القوات الأجنبية والاستعمار البريطاني الغاشم، ومحاولة إجلاء الإنكليز من الهند الذين كانوا يشكلون الخطر الداهم على الهند خاصة والعالم الإسلامي عامة، فظهرت على أيدي هذه النخبة الكريمة الطيبة فكرة الإمام الدهلوي وحركته من التفكير والتنظير إلى حيز الواقع والتطبيق، (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)يقول الأستاذ العلامة المودودي رحمه الله عن هذه الحركة العظيمة :

"إن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد جدد عهد الخلافة الراشدة في المناطق التي فتحها وأقام فيها الحكم الإسلامي، وكانت حكومته على منهاج النبوة" ويقول العلامة السيد سليمان الندوي:

"إن هذه الحركة هزت الهند كلها وخلقت جوهر الإخلاص والوحدة والعاطفة الإسلامية التي عمت من حدود البنغال إلى نيبال وبنجاب" ([1])

(1) رجال الفكر والدعوة / الإمام أحمد بن عرفان الشهيد للأستاذ واضح رشيد الندوي

لقدفاح شذا دعوته وعبير ندائه يوقظ الناس ويحيي القلوب الجافة المستعصية، وجاهد في سبيل الله جهادا سجله تاريخ الدعوة والجهاد بأحرف من الفخر والاعتزاز،

ولما أن هذه الحركة كانت أقرب إلى الحركات الإسلامية الأولى وأقرب إلى منهج الصحابة والخلفاء الراشدين، وكانت لها أهمية وآثار رائعة في مجال الدعوة والجهاد والعمل والكفاح اعتبرت كبرى الحركات الإسلامية في الهند، وكان الإمام الشهيد من أكبر الدعاة والمصلحين والمجاهدين، لا لغزير علمه وكثرة تأليفه بل لما كان يحمل بين جنبيه من قلب يحترق وعاطفة تتحرك وشعور يتألم لمصائب الأمة، ولأنه كان رجلا عاش داعيا مجاهدا مخلصا، صادقا مع نفسه صادقا مع ربه صادقا مع قومه، لقد كادت كلمة المؤرخين تتفق على أن هذه الحركة الطيبة كانت نتيجة للجهود التي بذلها الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وفكره وتخطيطه لإعادة مجد الإسلام التليد ورفع راياته على هضاب الهند.

التعريف الوجيز بشخصية الإمام الدهلوي

وإن صاحبنا الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي شخصية جليلة فذة، ومن عمالقة الفكر والاجتهاد، والدعوة والإصلاح، والتضلع في العلوم وجمع الفضائل، وقبل أن نذكر من دوره في التجديد والإصلاح يجدر بنا أن نتعرف على شخصيته، فأذكر هنا ملخصا مما ذكره الشيخ المؤرخ السيد عبد الحي الحسني([1]) في كتابه : " نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواضر"

(1) عبد الحي الحسني (1286 – 1341 هـ = 1869 – 1923 م ، الشيخ عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي والد الشيخ الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي، باحث مؤرخ هندي، عربي الأصل، انتقل أحد جدوده (قطب الدين) من بغداد إلى غزنة في فتنة المغول، ودخل الهند مجاهدا، وتولى مشيخة الإسلام في دهلي، واستقرت ذريته في الهند، ومنها صاحب الترجمة. ولد عبد الحي في زاوية السيد علم الله (على ميلين من بلدة رأي بريلي، من أعمال لكهنوء) وقرأ الفقه والأدب وبعض كتب الطب في لكهنوء، واستقر فيها مديرا لأعمال (ندوة العلماء) وتوفي ودفن بظاهر بلدة (رأي بريلي) له تصانيف، منها (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر – ط) ثلاثة أجزاء منه، جعل أحدها ذيلا للدرر الكامنة لابن حجر، و (جنة المشرق ومطلع النور المشرق – خ) في جغرافية الهند وأخبار ملوكها وخطوطها وآثارها، و (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف – ط) باسم (الثقافة الإسلامية في الهند) و (تلخيص الأخبار) في الحديث، وكتاب (الغناء). وكلها بالعربية. وصنف كتبا باللغة الأردية شعرا وأدبا وتراجم وتاريخا" نقلا عن : الأعلام للزركلي.

اسمه ونسبه، مولده:

الشيخ الإمام الهمام،حجة الله بين الأنام، قدوة الأمة وعلامة العلماء،وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين المتضلعين بحمل أعباء الشرع المتين، محي السنة، ومن عظمت به لله علينا المنة، شيخ الإسلام قطب الدين أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي:

العالم الفاضل النحرير أفضل من بث العلوم وأروى كل ظمآن

كان أبوه الشيخ عبد الرحيم من وجوه مشايخ دهلي ومن أعيانهم، له حظ وافر من العلوم الظاهرة والباطنة مع علو كعبه في طريقة الصوفية،

ولد الإمام الدهلوي يوم الأربعاء 14/ شوال عام 1114هـ في أيام السلطان المغولي العادل "العالمكير" .

دراسته وزيارته للحرمين الشريفين:

ويكون للمنهج الذي يتبعه الطالب وللشيوخ والمربين خاصة في تكوين ذوق الطالب وفتق مواهبه وتفجير ينابيع كفاءاته وفكره

وعقليته يد لاتجحد وأثر لا ينكر، ومن هذه الناحية أترك الحديث للإمام ليتحدث عن نفسه ، يقول في كتابه: "الجزء اللطيف في تر جمة العبد الضعيف":

"إني ولدت يوم الأربعاء رابع شوال وقت طلوع الشمس في سنة **1114**ه، اسمي التأريخي "عظيم الدين"، ورأى والدي وجماعة من الصلحاء مبشرات قبل ولادتي، وهي مذكورة في كتاب "القول الجلي في ذكر آثار الولي"، وفي الخامس من العمر أرسلوني إلى الكتَّاب، وأمر الوالد بإقامة الصلاة والصوم وأنا ابن سبع، وتمَّ اختتاني في السنة نفسها، وكذلك أنهيت القرآن الكريم لأبدأ الكتب الفارسية، حتى قرأت كتاب "شرح الملا جامي" وأنا ابن عشر سنين، وتمكنت من مطالعة الكتب و دراستها، وتزوجت في الرابع عشر من عمري، وبايعت على يد الوالد في الخامس عشر، واشتغلت بأشغال المشايخ الصوفية وخاصةً النقشبندية، وقرأت في نفس السنة جزءاً من كتاب "البيضاوي" فكأني أنهيت بذلك المنهج الدراسي السائد في هذه البلاد. و عمل الوالد بهذه المناسبة مأدبةً عظيمةً دعا لها الناس عامتهم وخاصتهم. وأجازني الوالد بالتدريس. و قرأت من العلوم والفنون السائدة في هذه الديار درساً درساً الكتبَ التاليةَ: كتاب

مشكاة المصابيح" (إلا النزر اليسير منه وهو من كتاب البيوع إلى كتاب الآداب)، و"صحيح البخاري" (لغاية كتاب الطهارة)، و"الشمائل للترمذي" (برمته)، وشيئاً من "تفسير البيضاوي"، و"تفسير المدارك".

ومن أعظم نعم الله علي أن وفقني لحضور درس القرآن الذي كان يلقيه الوالد، وكنت أقدم عليه دراسةَ عدة كتبٍ تفسيريةٍ، و إمعان نظر فيها. وبذلك قرأت نصوص القرآن الكريم غير مرةٍ على الوالد، وهو مما فتح علي باباً عظيماً من أبواب الخير والبركة، والحمد لله على ذلك.

وقرأت "الهداية" و"شرح الوقاية" – في الفقه – و"الحسامي"، وجزءاً كبيراً من "التوضيح والتلويح" – في أصوله – و"شرح الشمسية" – بكامله – وشيئاً من "شرح المطالع" – في المنطق – و"شرح العقائد" مع"حاشية الخيالي" وجزءاً من "شرح المواقف" – في علم الكلام – "والعوارف" و"رسائل النقشبندية" وغيرهما – في التصوف – و"شرح رباعيات للجامي" و "اللوائح" – في علم الحقائق – بالإضافة إلى "مقدمة شرح اللمعات" و"مقدمة نقد النصوص" و في فن خواص الأسماء والآيات قرأت بعض المجموعات

مما عمله الوالد، وفي الطب: "الموجزَ"، وفي الفلسفة: "شرحَ هداية الحكمة" وغيره، وفي النحو: "الكافيةَ" و"شرح الجامي" وفي علم المعاني: "المطول" والجزء الذي علَّق عليه الملا زاده من "مختصر المعاني" وفي علم الهيئة و الحساب بعض الرسائل الوجيزة .

وأحمد الله تعالى على أن دراسة هذه الكتب أيام التحصيل أكسبتني نوعاً من العلاقة بكل علمٍ وفنٍ، ورسخ في ذهني أهم قضاياه وأبرز مباحثه، ووعاها قلبي.

وتوفي الوالد وأنا ابن سبع عشرة سنة، وأجازني بأخذ البيعة والإرشاد وهو مريض، ثم اشتغلت بتدريس الكتب الدينية والمعقولات نحو اثني عشرعاماً، وتيسر لي إمعان النظر في كل علم وفن. و تشرفت بزيارة الحرمين الشريفين عام 1143هـ /1730م، وفي عام 1144هـ /1731م أقمت بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وتتلمذت على الشيخ أبي طاهرالمدني،([1]) وغيره من مشايخ الحرمين و أسندت الحديثَ

(1) هو محمد بن إبراهيم بن حسن، أبو الطاهر الكوراني المدني الشافعي (1081– 1145 هـ = 1670– 1733م): فقيه، صالح عرف بديانته ونسكه وتواضعه وخفض جناحه. له كتابات حسنة على مسائل فقهية سئل عنها من بلاد اليمن .مولده ووفاته بالمدينة. ولي فيها إفتاء الشافعية مدة. و له «اختصار شرح شواهد الرضي» للبغدادي. راجع: سلك الدررللمرادي 77/2؛ والأعلام للزركلي 304/5.

عنهم. وكانت الروضة المطهرة محط أنظاري خلال وجودي بالمدينة المنورة، فانهمرت عليّ من الفيوض والبركات ما لا أقدر وصفه، كما سعدت كثيراً في هذه الرحلة بزيارة و مجالسة عددٍ غير قليل من علماء الحرمين الشريفين والعالم الإسلامي، وخلع علي الشيخ أبوطاهر المدني خرقة تجمع بين طرق الصوفية كلها ثم قدَّر الله تعالى لي الحج مرةً ثانيةً في نهاية عام 1144هـ /1731م، وعدت إلى البلاد عام 1145هـ /1732م حتى وصلت إلى الوطن يوم الجمعة 14/ من رجب عام 1145هـ .

ومن أعظم ما أنعم الله تعالى على هذا العبد – يعني نفسه – أن أولاه خلعة الفاتحية، وعلى يده فتح هذا العهد الأخير؛ فكان أول من قرع هذا الباب. ومما وفقني الله تعالى للقيام به من الأعمال: تدوين المرضي من الفقه، وتأسيس الجمع بين الفقه والحديث من جديد، وتشييد الصرح العالي لهذا الفن الشريف. فقمت بضبط أسرار السنن ومصالح الأحكام وسائر ما جاء به صلى الله عليه وسلم من ربه عزّ وجل، ضبطاً لم يسبقني إليه أحد حتى أثبتُّ عقائد أهل السنة بالأدلة والحجج، وطهّرتها من قذى أهل المعقول بحيث لا تمتد إليه يد الريب والجدال.

كما وفقني الله تعالى – كذلك – لأن أثبت معتقدات أهل السنة والجماعة بالأدلة والحجج، و أُعْطِيتُ الحكمة العملية، وتوفيق تشييدها بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، و شرحها وبيانها، وتمييز العلم المنقول من المحرف المدخول، وفرق السنة السنية من البدعة غير المرضية" . انتهى

حينما نلاحظ هذه المقررات التي مربها الإمام نصل إلى أن هذا المنهج كان مشتملا على عدة علوم وجامعا لأشتات الفنون من التفسير والحديث والفقه والأصول والمنطق والكلام ومن كتب التزكية والتصوف وعلم الحقائق وخواص الأسماء والآيات ومن الطب والفلسفة والنحو وعلم المعاني والهيئة والهندسة، ونرى هذه الإحاطة والجامعية والشمول في كتب الإمام الدهلوي وفكره وعقليتة، ونرى أنه يحدث بنعمة الله سبحانه عليه مما وفق إليه من الأعمال.

"وكان الإمام الدهلوي يختلف كثيرا أثناء الدرس إلى الشيخ محمد أفضل السيالكوتي([1]) إمام الحديث في عصره، فانتفع به كثيرا

([1]) هو الشيخ العالم كبير المحدث محمد أفضل الحنفي أحد العلماء في الحديث، قرأ على الشيخ عبد الأحد بن محمد بن محمد سعيد السرهندي ، وانتفع به كثيرا وأسند الحديث عنه،ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار وصحب الشيخ عبد الأحد سالم بن عبد الله

في علم الحديث واشتغل الإمام الدهلوي بالتدريس نحوا من اثنتي عشرة سنة، وحصل له الفتح العظيم في التوحيد والجانب الواسع في السلوك وخاض فى بحار المذاهب الأربعة وأصول فقههم خوضا بليغا، ونظر في الأحاديث التى هي متمسكاتهم في الأحكام، وارتضى من بينها طريق الفقهاء المحدثين،

ثم اشتاق إلى زيارة الحرمين الشريفين فرحل إليها سنة 1143هـ، وأقام بالحجاز الشريف عامين كاملين، وصحب علماء الحرمين صحبة شريفة، وتلمذ على الشيخ أبي طاهر الكردي المدني (ت/1145هـ) في المدينة المنورة، فتلقى جميع منه صحيح البخاري ما بين قراء ة وسماع، وشيئا من صحيح مسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داؤود وابن ماجة وموطا الإمام مالك ومسند أحمد والرسالة للشافعي والجامع الكبير، وسمع منه مسند الدارمي من أوله إلى آخره في عشرة مجالس كلها بالمسجد النبوي عند المحراب العثماني تجاه القبر الشريف، وشيئا من الأدب المفرد للبخاري وشيئا من أول الشفاء

البصري فأحس صحبته وانتفع به، ثم رجع إلى الهند وسكن بمدينة دهلي، أخذ عنه الشيخ الإمام ولي الله الدهلوي، والشيخ جان جانان وخلق كثير من العلماء، توفي سنة ست وأربعين ومأة وألف، نزهة الخواطر 806/6

للقاضي عياض، وسمع عليه "الأمم" فهرس الشيخ إبراهيم بن الحسن الكردي المدني مع التذييل، ثم ورد بمكة المكرمة وأخذ موطا مالك عن الشيخ وفد الله المالكي، وحضر درس الشيخ تاج الدين القلعي الحنفي المكي أياما حين كان يدرس صحيح البخاري، وسمع عليه أطراف الكتب الستة وموطا مالك ومسند الدارمي وكتاب الآثار لمحمد، وأخذ الإجازة عنه لسائر الكتب، وأخذ عنه الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ إبراهيم بن الحسن المدني وهو أول حديث سمع منه بعد عودته من زيارة قبر النبيﷺ، وعاد إلى الهند 1145هـ([1]).

وأرى أن الشيئ المهم الذي أثر في شخصية الإمام الدهلوي حتى كون فكرته المتزنة العادلة هو رحلته إلى الحرمين الشريفين والاستفادة من مشايخهما، إنه تعلم وقرأ على أساتذتهم جهابذة العلم وأئمة الفن في عصرهم، وكأني أري أن منهج هذه المدرسة في أسلوب التدريس وغايته وفي صفات المدرسين وطلبتها أشبه بالمدرسة التي تخرج منها علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، في صفاء النية وعلو

(1) ملخص من كتاب نزهة الخواطر ، المجلد السادس

النظر وفي المحبة المتبادلة والصلة الودية بين الأساتذة والمربين والطلاب والمسترشدين، وفي البساطة في المظاهر، والتركيز على الغاية المنشودة، وسعة الفكر وسماحة الصدر، وعدم التعصب والتشدد، ومبدأ احترام الجميع رغم الاختلاف في الفروع والجزئيات، وفي مبدأ الجمع بين التزكية والتعليم وبين الذكر والعبادة، هذه هي المدرسة بخصائصها التي تخرج فيها الإمام الدهلوي، وأظن أنها هي العوامل الأساسية التي كونت "ولي الله بن عبدالرحيم" إماما مجددا عبقريا لا يجاري، ومصلحاداعيا وعملاقا في الفكر والاجتهاد لا يبارى

ميزات الإمام الدهلوي:

وقد امتاز الإمام الدهلوي بالفصاحة في اللغة العربية وامتلاك ناصية البيان نثرا وشعرا، والغوص في الفقه على المذاهب الأربعة والاطلاع على مأخذ المسائل ومنازع الحجج والدلائل، والتوسع في علم الحديث مع حفظ المتون وضبط الأسانيد والنظر في دواوين المجاميع والمسانيد، ولم يتفق لأحد قبله ممن كان يعتني بهذا العلم من أهل قطره ما اتفق له من رواية الأثر وإشاعته في الأكناف البعيدة، والتبحر في علوم القرآن، كما أنه هذب أصول هذه العلوم ومبادئها

تهذيبا بليغا وأكثر التصرف فيها حتى يكاد يصح أن يقال: إنه باني أسها وباري قوسها، فكتابه " الفوز الكبير في أصول التفسير" شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها، والحق أنه متفرد بتحقيق هذا الفن وتدقيقه، وأما أصول الحديث فله فيها باع رحيب، وقد أشار ابنه الشيخ المحدث عبدالعزيز الدهلوي أن له فيها تحقيقات مستطرفة لم يسبق إليها، وأما أصول الفقه فإنه شرح أصول المذاهب المختلفة وجمعها وبين الفرق بين الأمور الجدلية والأصول الفقهية، ورد وجوه الاستنباط على كثرتها إلى عشرة، وأسس قواعد الجمع بين مختلف الأدلة وبين قوانين الترجيح، وأما علم العقائد وأصول الدين فإنه أتى فيه بأسرار غامضة في التطبيق بالمأثور مما لايهتدي إليها في الأعصار إلا واحد بعد واحد ممن يجتبيه الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن المتكلم في هذا الفن إنما هو صاحب حديث يتهافت على ظواهره أو صاحب كلام يتعمق في الرأي أو صاحب فقه يتوسط الفريقين أو صاحب ذوق يطمئن إلى ما يتجلى له، وقد جمع الله في صدره ما شتته بين هؤلاء، وكذلك كثير من العلوم والفنون والحقائق فضل فيها أهل عصره وكثيرا ممن تقدمه أو تأخر عنه،

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

آراء العلماء الأجلة فيه:

وإن الإمام الدهلوي من أولئك العلماء النوابغ والأئمة الفطاحل الذين كادت كلمة الأمة تتفق على جلالتهم ومكانتهم السامية في العلوم والفنون ودورهم الفعال الملموس في الإصلاح الشامل الجامع، وأذكر هنا ملخصا مما ذكره المؤرخ الشيخ عبد الحي الحسني من آراء العلماء الأجلة فيه، قال عنه شيخه المحدث الشهير أبوطاهر محمد بن إبراهيم المدني:

"إنه كان يسند عني اللفظ وكنت أصحح منه المعنى" أو كلمة تشبه ذلك، وكتبها فيما كتب له، وهذا يقرب من قول البخاري في أبي عيسى الترمذي حين قال له: "ما انتفعت بك مما انتفعت بي" وليس وراءه مفخرة ترام ولا فوقها منقبة تتمنى،

شرف ينطح النجوم بروقيه وعز يقلقل الأجبالا

وذكر الشيخ غلام علي في أن شيخه "مرزا جان جانان" العلوي الدهلوي([1]) كان يقول:

---

(1) هو حبيب الله جان جانان من أحفاد الأمير كمال الدين الطائفي الأصل، الهندي المولد والمنشأ. ولد عام 1113هـ . 1780م. صاحب الشيخ نور محمد وسلك على يديه الطريقة

"إن الشيخ ولي الله قد بين طريقة جديدة وله أسلوب خاص في تحقيق أسرار المعارف وغوامض العلوم، وإنه رباني من العلماء، ولعله لم يوجد مثله في الصوفية المحققين الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن، وتكلموا بعلوم جديدة إلا رجالا معدودين"

النقشبندية .ثم تتلمذ على المشايخ : محمد أفضل حيث أخذ عنه علم الحديث، حافظ سعد الله، محمه عابد السنامي... وقام بالكثير من الرياضات والمجاهدات حتى انتهى إلى سدة الأرشاد والتربية في بلاد الهند. وفي عام **1195**هـ. **1780**م وبعد أن جاوز الثمانين من عمره أتى لزيارته ثلاثة من المجوس، فلما تأكدوا من شخصه قام أحدهم بطعنه بسكين خاصرته. وبعد ثلاثة أيام توفي الشيخ جان، واشتهر حبيب الله مرزا مظهر جانِ جانان بالزهد بالمال والجاه، والإقبال بكنه الهمة على الله. « قال له ملك الهند : ان الله أعطاني مملكة واسعة، فأرجو أن تقبلوامنها شيأً. فقال الشيخ : إن الله قد وصف الدنيا بالخسة والهوان فقال : «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ » 77:4 أما مملكتكم فهى ولاية صغيرة من أقليم من أقاليم هذه الدنيا فلا أريد أن أرزأكم في هذا الجزء الصغير. وقدم إليه مرة الأمير آصف جاه وزير المملكة المغولية في الهند عشرين ألف روبية ؟ فلم يقبلها. فقال الأمير:خذوها وقسموها على أهل الحاجة فقال: إنى لا أحسن هذا العمل فتولوا توزيعه بنفسكم، ومن مؤلفاته: ديوان شعر فارسي، أجوبة على مسائل.في الحديث والتصوف، باللغة الفارسية، ومن أشهر مريديه: ثناءالله العثماني الباني بتي صاحب التصانيف في التفسير والحديث والفقه والتصوف، ومرادالله المعروف بغلام كاكي، وقد نشر الطريقة النقشبندية في البنغال، والشيخ عبد الله الدهلوي المعروف بشاه غلام علي، وهو الذي تسلم الإرشاد بعد وفاة الشيخ .

ولما اطلع الشيخ العلامة "فضل حق خيرآبادي"([1]) على كتابه "إزالة الخفاء" أولع به، وكان يكثر النظر فيه ويقول: "إن الذي صنف هذا الكتاب لبحر زخار لا يرى له ساحل". هذا، وليس يقع فيه إلا جاهل غبي من الجهال لا يرجى أن يستطب ما به من دائه العضال، أو حاسد يحسده على ما أكرمه الله تعالى من علية الخصال وجلية سجايا الشرف والكمال،

حسدوك إذا رأوك آثرك الله بما قد فضلت النجباء

وقال المفتي عناية أحمد الكاكوروي : ([2])" إن الشيخ ولي الله مثله كمثل شجرة طوبى، أصلها في بيته وفرعها في كل بيت من بيوت

---

(1) هو الشيخ الإمام العالم الكبير فضل حق بن فضل إمام بن محمد أرشد العمري الحنفي الماتريدي الخيرآبادي أحد الأساتذة المشهورين، ولد سنة اثنتي عشرة ومأتين وألف، قال القنوجي في أبجد العلوم: إنه كان إمام وقته في العلوم الحكمية والفلسفية بلا مدافع غير أنه وقع في أهل ونال منهم على تعصب منه، ....ولذا انتقد عليه عصابة من علماء الحق، وللشيخ عدة مؤلفات نافعة، مات لاثنتي عشرة خلون من صفر سنة ثمان وسبعين ومأتين وألف بجزيرة من "جزائر السلان" فدفن بها،، انظر نزهة الخوطر: 1064/6

(2) هو الشيخ العالم كبير المفتي عناية أحمد بن محمد بخش بن غلام محمد لطف الله الديوي ثم الكاكوروي أحد العلماء المشهورين، ولد لتسع خلون من شوال سنة ثمان وعشرين ومأتين وألف، أخذ الديث عن الشيخ المسند إسحاق بن أفضل العمري الدهلوي، ومن مشاهير زمانه، وله مؤلفات نافعة في مختلف العلوم، توفي لسبع عشرة خلون من شوال سنة تسع وسبعين ومأتين وألف، انظر للتفصيل انظر نزهة الخوطر: 1048/6

المسلمين، فما من بيت ولا مكان من بيوت المسلمين وأمكنتهم إلا وفيه فرع من تلك الشجرة لا يعرف غالب الناس أين أصلها"؟.

وقال الشيخ المحدث صديق حسن القنوجي([1]) في كتابه: "الحطة بذكر الصحاح الستة" في ذكر من جاء بعلم الحديث بالهند: " ثم جاء الله سبحانه وتعالى من بعدهم بالشيخ الأجل والمحدث الأكمل ناطق هذه الدورة وحكيمها وفائق تلك الطبقة وزعيمها الشيخ ولي الله عبدالرحيم الدهلوي (م 1176هـ) وكذا بأولاده الأمجاد وأولاد أولاده أولي الإرشاد، المشمرين لهذا العلم عن ساق الجد والاجتهاد، فعاد بهم علم الحديث غضا طريا بعد ما كان شيئا فريا، وقد نفع الله بهم وبعلومهم كثيرا من عباده المؤمنين، ونفى بسعيهم المشكور من فتن الإشراك والبدع ومحدثات الأمور في الدين ماليس بخاف على أحد من العالمين، فهؤلاء الكرام قد رجحوا علم السنة

(1) هو محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي(1248– 1307هـ = 1832– 1890م): من العلماء البارزين، ولد ونشأ في «قنوج» (بالهند)، وتعلم في «دهلي». وسافر إلى«بهوبال» طلبا للمعيشة، ففاز بثروةٍ وافرةٍ. له نيف وستون مصنفاً بالعربية والفارسية والهندية. منها بالعربية (حسن الأسوة في ما ثبت عن الله ورسوله في النسوة – ط) و (أبجد العلوم– ط) و (فتح البيان في مقاصد القرآن– ط)، و(حصول المأمول من علم الأصول– ط) و(عون الباري– ط) في الحديث، و (العلم الخفاق من علم الاشتقاق – ط). راجع: الأعلام للزركلي 167/6.

على غيرها من العلوم، وجعلوا الفقه كالتابع له والمحكوم، وجاء تحديثهم حيث يرتضيه أهل الرواية ويبغيه أصحاب الدراية، شهدت بذلك كتبهم وفتاواهم ونطقت به زبرهم ووصاياهم، ومن يرتاب في ذلك فيرجع إلى ما هنالك، فعلى الهند وأهلها شكرهم ما دامت الهند وأهلها"

من زار بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة والقلب عن جابر والسمع عن حسن

وهو القائل في إتحاف النبلاء– وهو يتحدث عن عائلته و مآثرها وأمجادها –: "وكل منهم نادرة زمانه، و فريد دهره، و وحيد عصره علماً و عملاً، وعقلاً وفهماً، يجمع إلى قوة الكلام، ورشاقة القلم: التقى و الدينَ، ومرتبةً عليا من الولاية والزهادة. وكذلك أولاده و أولادهم، فكلهم شموس بازغة في سماء العلم والمعرفة"([1])

وأما مصنفات الإمام الدهلوي: "فحدث عن البحر ولا حرج" فهي كثيرة وكلها تدل على سعة نظره وغزارة علمه وبعد غوره وغوصه

(1) إتحاف النبلاء المتقين بإحياء مآثر الفقهاء والمحدثين له ص: 439 ط: النظامي، كانفور الهند

في الحقائق والمعاني الدقيقة في علوم القرآن والسنة وأصول الدين وأسرار الشريعة وعلم الحقائق والسلوك والسير والأدب ،

وتوفي الإمام الدهلوي بعد مآثر جليلة ظهيرة يوم السبت سلخ شهر الله الحرام سنة 1176هـ عن 62/ سنة بمدينة دهلى، ودفن عند والده خارج البلدة([1]) رحمه الله وأغدق عليه من شآبيب رضوانه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزي به عباده الصالحين.

دورالإمام في التجديد والإصلاح

(1) راجع للتفصيل : نزهة الخواطر 6/ 398– 415.

النظرة الإجمالية على دوره في الدعوة والتوجيه والتجديد والإصلاح

يجدر بنا أن نلقي بهذا الصدد النظرة الإجمالية على أعماله التجديدية ومآثره الجليلة في مجال الدعوة والتوجية والتجديد والإصلاح والتربية، وهي كما يلي:

1 – في جانب العقائد أرشد إلى الحق ودعا إلى المنهج السليم عن الغلو والإفراط، وألف رسالة وجيزة لتأييد منهج السلف " العقيدة الحسنة " كما تعرض لهذا الموضوع في مختلف مؤلفاته.

2– وفي جانب القرآن وعلومه دعا إلى التدبر في معانيه والوقوف عند حكمه و أسراره، ترجم القرآن الكريم واهتم بحلقاته ودروسه، وصنف كتابا جامعا في أصول التفسير " الفوز الكبير في أصول التفسير"

3– وفي مجال الحديث الشريف وعلومه اعتنى عناية بالغة بتدريس الحديث ونشر علوم السنة ، وعرض الفقه الموروث على الحديث الشريف ، والعمل بالسنة دون البدع والتقاليد ،ألف عدة كتب في هذا

المجال وتكلم في "حجة الله البالغة" عن هذا الموضوع ، وشرح موطا مالك شرحا بديعا تكلم فيه ككلام المجتهدين،

4- في مجال الفقه الإسلامي دعا إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، وترك التقليد الباطل، ودعا إلى الأخذ بما يوافق السنة الصحيحة، وقدم منهجا أصوليا متزنا لتنقيح المذاهب الفقهية في كتبه من "عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد" و"الإنصاف في بيان سبب الاختلاف" ومواضع من كتابه "حجة الله البالغة" وفي كتابه "المصفى شرح الموطا" وغيرهما من كتبه.

5- وفي جانب إقامة الحكم الإسلامي قدم نظريات مهمة هي بمثابة نظام الإسلام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في عدد من مؤلفاته وبصورة خاصة في كتابه "حجة الله البالغة" ومهد الطريق لقيام جماعة تحدث انقلابا إسلاميا، وتؤسس دولة إسلامية.

6- وفي مجال الدعوة العامة والإصلاح دعا إلى الرجوع إلى طريقة النبي ﷺ في سائر المجالات، جس نبض المجتمع وعرفه بأمراضه ودل على علاجه المستنبط من الكتاب والسنة.

7- وفي مجال مقاصد الشريعة بين أسرارها وحكمها، ودعا إلى إعمال العقل دون حرية الاعتزال وجمود الظاهرة في تأليفه النادر العظيم"حجة الله البالغة" وغيره من كتبه،

8- وفى مجال التصوف والتزكية جمع بين العلم والإحسان بين الحجة الشرعية والخشية القلبية، بين دقة العقل وإشراقة الروح، كما قام بتنقيح التصوف وعرض مناهجه وطرقه على الكتاب والسنة، وقبول ما وافقهما ورد على ما خالفهما، بين المعنى الصحيح للتزكية والإحسان وأهميتهما، وأنكر على خرافات وبدعات جهلة المتصوفين.

يقول الشيخ أبوالحسن علي الحسني الندوي في "رجال الفكر والدعوة في الإسلام": "إن الأعمال والمآثر الجليلة التي وفق الله سبحانه وتعالى الإمام الدهلوي لتحقيقها وإنجازها من التجديد وإصلاح الأمة، وإحياء الفهم الصحيح للدين، ونشر العلوم النبوية وإعادة الحياة والنشاط والحيوية في فكر عهده والأمة الإسلامية وعملها وجهودها تتسع دائرتها وتتنوع شعبها بحيث لا يوجد له نظير لا في المعاصرين فحسب، بل في عامة العلماء والمؤلفين في العهود السالفة أيضا، ويمكن أن يكون سبب ذلك- عدا التوفيق والتقدير

الإلهيين– يرجع إلى مقتضيات ذلك العهد الذي عاشه، وإلى ذلك الاحتواء والشمول وعلو الهمة، والمنهج الخاص للتعليم والتربية الذي خصه الله وقدر له، وقد كان نتيجة كل ذلك أن الإمام الدهلوي قام بمآثره التجديدية والإصلاحية في مجالات متنوعة من العلم والعمل" ([1])

وأنا أذكر هذا الإجمال بقدر من الوضوح والتفصيل.

([1]) رجال الفكر والدعوة في الإسلام 105/4.

دور الإمام الدهلوي في علم العقائد

نريد بهذا الصدد أن نذكر من دوره الذي قام يوم كان المجتمع الهندي مصابا بالبدع والخرافات ، واضمحلت العقيدة الثابتة بالكتاب والسنة في مصطلحات الفلاسفة والمتكلمين الجافة، وانتشرت التقاليد الباطلة والمحدثات في أوساط المسلمين، وخرافات علماء السوء وجهلة المتصوفة،كما سيطرت فكرة التشيع، فكان المجتمع الهندي مصابا بالشلل في الفكر والعقيدة والسلوك، ولما نرى في سيرته وأعماله نجد أن منهجه التجديدي وجهوده مركزة في أربعة جوانب تالية:

1-الدعوة إلى تصحيح العقيدة والتمسك بمنهج السلف،

لقد سبقت الإشارة بأن عصر الإمام الدهلوي كان مملوءا بالفتن والبدعات والخرافات والخزعبلات في الفكر والعمل والسلوك، وكان المذهب السائد آنذاك في الهند هو مذهب الفلاسفة والمتكلمين، والبعد عن كتاب الله وسنة رسوله، ومنهج السلف الصالح

، ومن أضرار هذا الأسلوب هو الخوض في صفات الله وذاته حقيقتها وكيفيتها، وذلك يفضي إلى ضلال من تشبيه أوتعطيل أو نفي أو تعطيل أو تحريف أو تبديل ، فقام الإمام الدهلوي وقطع قول كل خطيب، وحسم مادة الشر والفساد واقتلع جذور الفساد وبين أن السلف ما كانوا يخوضون في هذه التفاصيل العقيمة والمجادلات والسفسطة فقال في "حجة الله البالغة":

"اعلم أن من أعظم البر الإيمان بصفات الله تعالى واعتقاد اتصافه بها فإنه يفتح بابا بين هذا العبد وبينه سبحانه ويعده لانكشاف ما هنالك من المجد والكبرياء، اعلم أن الحق تعالى أجل من أن يقاس بمعقول أو محسوس أو يحل فيه صفات كحلول الأعراض في محالها أو تعالجه العقول العامية أو تتناوله الألفاظ العرفية....وقد أجمعت الملل السماوية قاطبتها على بيان الصفات على هذا الوجه، وعلى أن تشتمل تلك العبارات على وجهها، ولا يبحث أكثر من استعمالها، وعلى هذا مضت القرون المشهود لها بالخير، ثم خاض طائفة من المسلمين في البحث عنها وتحقيق معانيها من غير نص ولا برهان قاطع، قال النبي ﷺ: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق....والصفات ليست بمخلوقات ولا محدثات، والتفكر فيها أن

الحق كيف اتصف بها فكان تفكرا في الخلق....واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة ومشبهة، وقالوا: هم المستترون بالبلكفة، وقد وضح علي وضوحا بينا أن استطالتهم هذه ليست بشيء، وأنهم مخطئون في مقالتهم رواية ودراية، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى، وتفصيل ذلك أن ههنا مقامين:

أحدهما: أن الله تبارك وتعالى كيف اتصف بهذه الصفات؟ وهل هي زائدة على ذاته أو عين ذاته؟ وما حقيقة السمع والبصر وغيرها ؟ فإن المفهوم من هذه الألفاظ بادئ الرأي غير لائق بجناب القدس، والحق أن النبي ﷺ لم يتكلم فيه بشيء بل حجر أمته عن التكلم فيه والبحث فيه، فليس لأحد أن يقدم على ما حجره.

والثانى: أي شيئ يجوز أن نصف تعالى به وأي شيئ لايجوز أن نصفه به؟ والحق أن صفاته وأسماءه توقيفية، بمعنى إنا وإن عرفنا القواعد التي بنى الشرع بيان صفاته تعالى عليها، كما حررنا في صدر الباب لكن كثيرا من الناس لو أبيح لهم الخوض في الصفات لضلوا وأضلوا، وكثير من الصفات وإن كان الوصف بها جائزا لكن قوما من

الكفار حملوا تلك الألفاظ على غير محملها، وكثير من الصفات يوهم استعمالها على ظواهرها خلاف المراد، فوجب الاحتراز عنها، فلهذه الحكمة جعلها الشرع توقيفية، ولم يبح الخوض فيها بالرأي، والمسألة معتضدة بالعقل والنقل، لايحوم البالطل من بين يديها ولا من خلفها"([1])

تناول الإمام هذا الموضوع في مختلف المواضع في كتابه "حجة الله البالغة" وكتابه "التفهيمات الإلهية" وألف رسالة جامعة لتقرير مذهب أهل السنة والجماعة وسماها "العقيدة الحسنة" لقد دعا الإمام بهذا الصدد إلى العقيدة الصحيحة الثابتة من كتاب الله وسنة رسوله ومنهج السلف الصالحين، وحذر من الشرك بالله في ذاته وصفاته وأفعاله وخصائصه، وقال فيه:

" إنني أعتقد من صميم قلبي أن للعالم صانعا قديما لم يزل ولايزال، واجبا وجوده، ممتنعا عدمه، وهو الكبير المتعال متصفا بجميع صفات الكمال، منزها من جميع سمات النقص والزوال، وهوخالق لجميع المخلوقات وعالم لجميع المعلومات، قادر على

(1) حجة الله البالغة 1/ 63– 64

جميع الممكنات، حي سميع بصير، لا شبيه له ولا ضد ولا ند ولا مثل لـه فـي وجـوب الوجـود، ولا فـي اسـتحقاق العبـادة، ولا فـي الخلـق والتدبير ...، وهو فوق العرش ولكن لا بمعنى التحيز والجهة، بل لا يعلم كنه هذا التفوق والاستواء إلا هو والراسخون في العلم ممن آتاه الله من لدنه علما... لا حاكم سواه فليس للعقل حكم في حسن الأشياء وقبحها... وإنما حسن الأشياء قبحها بقضاء الله وحكمه وتكليفه للناس.....ولايخلد المسلم صاحب الكبيرة في النار، وهي التي قال الله تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)...والعفو عن الكبائر جائز غير أن أفعال الله تعالى في الدنيا والآخرة على وجهين: موافقة لسنة الله، وكائنة على سبيل خرق العوائد، وعفو الكبائر عمن مات بلا توبة من باب خرق العوائد، وكذلك العفو عن حقوق الناس جائز ولكن بطريق خرق العوائد....وهذا وجه التطبيق بين النصوص المعارضة بادئ الرأي" ([1])

([1]) العقيدة الحسنة ، وكذلك راجع: التفهيمات الإلهية: 144/1

هكذا بين منهج السلف في هذه الموجزة، كما تكلم عن التوحيد والتحذير عن الشرك في حجة الله البالغة، وألف رسالة مستقلة لأهمية الموضوع، وسماها "تحفة الموحدين".

2-إبطال العقائد والتقاليد الباطلة والرد على البدع والمحدثات:

كانت البدع والخرافات والأفكار الباطلة منتشرة في أوساط المسلمين في الهند لاختلاط المسلمين بالكفار والوثنيين، ولوجود علماء السوء وجهال المتصوفين أيضا، فأنكر عليهم الإمام أشد إنكار، ورد على جميع البدع والخرافات الفاسدة، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة بصريح القول بدون مداهنة ولا مجاملة، وذم على العادات والتقاليد، وأنكر على المتصوفين وعلماء السوء الذين اتخذهم الناس أربابا من دون الله بكل قوة وصراحة،كما أنكر على الخرافات والعقائد الباطلة التي كانت مرتعا خصبا للناس آنذاك من شد الرحال لزيارة قبور الصالحين والاستمداد منها واتخاذها مساجد، ورد على الشرك وأنواعه ومظاهره كلها بأبلغ أسلوب وحكمة وموعظة.

3- الرد على الشيعة: كانت الحاجة ماسة إلى الرد على المذهب الشيعي الرافضي الذي كان رائجا في عصره، حيث انتشر دعاته ينشرون العقائد الشيعية في الهند تحت ظل الحماية الملكية وتشجيع الملوك والأمراء الذين أشربوا في قلوبهم التشيع، ورسخ ذلك في نفوسهم، وكانت النظرية الشيعية التي نالت رواجا وقبولا هي إبطال خلافة الخلفاء الثلاثة، وكانوا يضيفون إليها من ألفاظ وتعبيرات جميلة مثل حب أهل البيت والدفاع عن الأهل والآل، فكان عامة الناس السذج يقعون فريسة لهم في حبائل التشيع، وما نجا منهم إلا الأفذاذ والقلائل، وكانت الحاجة ماسة إلى رجل عبقري عصامي يرد عليهم ويثبت خلافة الخلفاء الراشدين بأدلة قوية ويبين هذه العقيدة وأهميتها في ضوء الكتاب والسنة بيانا شافيا، فقام بهذه المهمة الجليلة الإمام ولي الله الدهلوي ، وألف الإمام الدهلوي بهذا الصدد كتابا جامعا في اللغة الفارسية وأتى فيه بأدلة قطعية علمية وبراهين قوية على ثبوت الخلافة للخلفاء الراشدين، وأسماه "إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء"

وإن مسئلة ثبوت الخلافة هل هي ثابتة بالنص أم بالاجتهاد كانت مثارا للخلاف والشقاق بين العلماء، ذهب الإمام الدهلوي يقوم

بتقويم هذا الأساس ويصرح بكل قوة أن خلافة الخلفاء ثابتة بالنص، فقال في كتابه ما ملخصه:

" وكما أن مدبر السماوات والأرض قرر جميع أحكام الشرع في الكلام النفسي الذي أشار إليه في قوله تعالى: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم) الآية، ثم أوحى بها إلى النبي ﷺ بالإجمال حينا وبالتفصيل حينا آخر، ثم بينها الرسول ﷺ بالتصريح أو التلميح حتى ظهر مقصود الله، وتمت حجته وعلم تكليف العباد بالاعتقاد والعمل بها، فكذلك تقررت خلافة الخلفاء أولا في الكلام النفسي (اللوح المحفوظ)، ثم أنزلت في القرآن إجمالا ثم فصلت للرسول في رؤياه أو في رؤيا بعض الصحابة حتى أخبر الرسول ﷺ بثبوت الخلافة للخلفاء الراشدين بالتصريح أو الإشارة، فعلم ضرورة الاعتقاد بخلافتهم، وعمل بمقتضاه أهل القرن الأول راضين مؤمنين، وهذا خلاف مذهب الأشاعرة الذين يقولون: إنه لا يوجد نص في ثبوت الخلافة للخلفاء الراشدين، وكان ثبوتها اجتهادا من الصحابة، وخلاف الذين يزعمون أن الناس اتفقوا على سلب الخلافة وغصبها ممن كان مستحقا لها لأغراض مادية دنيوية، وقد يقال: إذن كيف تشاور

الصحابة واجتهدوا والنص موجود، ولا اجتهاد مع النص؟ والجواب على هذا أن اجتهادهم كان لجمع أحاديث الخلافة وترويج الاستنباط منها وتذكير المعاني التي تحملها أخبار ومآخذ متعددة"([1])

الأدلة على ثبوت الخلافة: واستوعب الإمام الدهلوي جميع الآثار والأحاديث والأدلة العقلية والنقلية التي تثبت خلافة الخلفاء الراشدين، ومن هنا نستطيع أن ندرك عبقرية الإمام في سعة الاطلاع ودقة الفهم والتضلع في العلوم وإمامته في الخوض في النصوص، وفيما يلي نذكر نموذجا من استدلالات الإمام الدهلوي في الموضوع، قال الإمام الدهلوي في كتابه ما ملخصه:

" ان الله سبحانه وتعالى يقول: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

(1) إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء ص: المقصد الأول.

يقول الإمام رحمه الله: إن الاستدلال بهذه الآية الكريمة على ثبوت الخلافة يتم من عدة وجوه:

1- الخطاب في قوله تعالى "منكم" ، إما أن يكون لسائر الأمة وإما أن يكون لمن كان موجودا عند نزول الآية، والثاني هو الراجح، لأن الأول يستلزم التكرير بعد قوله سبحانه "الذين آمنوا" ولا فائدة فيه، وإذا ثبت هذا فاعلم أن الآية تصدق على الخلفاء الراشدين قبل الجميع،كما يقول العرب: استخلف بنوالعباس، وأثرى بنو تميم، ويريدون بعضهم لا كلهم، فاستخلاف الخلفاء الراشدين هو استخلاف المؤمنين الذين ذكروا في الآية.

2- وإن نسبة الاستخلاف في الآية الكريمة إلى الله عزوجل: (ليستخلفنهم في الأرض) تحمل معنيين عظيمين: وجوب طاعتهم على الأمة وبيان أن استخلافهم نعمة كريمة ومنحة ربانية عظيمة تستحق الشكر، لأن الشر لا ينسب إلى الله تعالى، ويتأكد هذا المعنى من الوعيد الذي ذكر بعد هذا الوعد، وذلك على من لم يشكر هذه النعمة بقوله: (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) ولا شك أن قاتلي

سيدنا عثمان رضي الله عنه أول من كفروا بهذه الآية، ثم خلف بعدهم الإمامية الذين لا يقرون بخلافة الخلفاء،.

3- وكذلك يدل قول الله سبحانه وتعالى: (وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم) على أمرين:

الأول: أن الله يظهر الدين الذي ارتضى لهم عند تحقق هذا الوعد.

والثاني: إن الأمور التي تتحقق على أيدي أولئك الخلفاء الذين يستخلفهم الله جل وعلا – سواء كانت من العقائد أو العبادات أو القضايا أو المعاملات– تكون دينا يرتضيه الله وحجة شرعية يعمل بها المجتهدون، وهذا عكس ما يتزعمه الإمامية أن الدين الحق ظل مخفيا مغلوبا في زمن الخلفاء الراشدين، وعجز أهل البيت عن "إظهار الدين الحق" وتمسكوا بالتقية، وهذا غير معقول منهم.

4- وكذلك يدل قوله تعالى (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) على أن المسلمين سيكونون بسلام وأمن وراحة وطمأنينة في زمن الخلفاء الموعودين في الآية الكريمة، فلا خوف يهددهم ولا ضرر يلحقهم ولا أذى يمسهم، وهذا أيضا خلاف ما يتزعمه الإمامية أن أئمة أهل البيت

ظلوا مظلومين مضطهدين مقهورين بائسين يمسهم المسلمون بسوء، ثم بالرغم من ذلك كله، لا نصرهم الله ولا أيدهم ولا بدل خوفهم أمنا"([1])

هكذا تظهر لنا براعة الإمام الدهلوي في استدلاله واستنباطه والفهم الدقيق لمعاني النصوص والتضلع ودقة النظر، ثم يقول الإمام الدهلوي في نفس الكتاب: إنه هو ليس أول من يستدل هذه المعانى، وليس شيئا جديدا يستنبط من كتاب الله عزوجل، فقال: " إن أول من فهم تطبيق هذه الآية على الخلفاء الراشدين من مفسري الصحابة هو سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلما استشاره سيدنا عمر رضي الله عنه في أن يذهب هو بنفسه إلى المعركة أشار عليه بالبقاء في المدينة المنورة وبشره بالفتح والنصر واستدل بهذه الآية، فكيف يزعم الشيعة أن الوعد المذكور في الآية سيتحقق في عصر "المهدي المنتظر" أو أنه قد تحقق في زمن النبي ﷺ "([2])

(1) إزالة الخفاء ص: 20

(2) ملخص من إزالة الخفاء ص: 20–65

5- نقدالمجتمع والحسبة عليه ودعوته إلى الرجوع إلى الإسلام من جديد:

كان لا بد لقائد وإمام عبقري ينهض لإصلاح شامل مثل الإمام الدهلوي أن ينظر في المجتمع بدقة وإمعان ويعرف مواضع الضعف والفساد ومنابع الفوضي والخلل، ويتناول أفراد المجتمع طبقة طبقة، و يذكر عللها وأدواءها، نرى الإمام الدهلوي يوجه خطابه صريحا مثل العارف الخبير إلى كل من العلماء والمتصوفين والعباد الجهال والملوك والأمراء والتجار وعامة المسلمين، ينصحهم ويدعوهم إلى صلاحهم في كتابه "التفهيمات الإلهية" يقول الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي:

" إنه خاطب السلاطين والأمراء وأركان البلاط والجنود العسكريين والصناع والمحترفين وأولاد المشايخ المتصوفين، وعلماء السوء المنحرفين والوعاظ المتشدقين المتقشفين والزهاد المنعزلين،كل طبقة من هذه الطبقات على حدة وفى صورة مستقلة، وضرب على وترهم الحساس، ودل على مكامن ضعفهم وانحرافهم وأنواع غرورهم وخداعهم، كما خاطب الأمة الإسلامية بصورة عامة خطابا جامعا شاملا، وكشف عن أمراضها وأدواءها، ووصف علاجها،

وقد بلغ توجعه وحرقة قلبه واندفاعه في الحمية الإسلامية وعاطفة الدعوة الدينية وبلاغة البيان وقوة التعبير في هذه الخطابات الخاصة أوجها وذروتها، يصعب أن تجد أمثلتها في كتب المؤلفين السابقين والمصلحين الناقدين... ويتجلى في هذه الخطابات الخاصة من دقة نظر الإمام الدهلوي وعمق ملاحظته وحكمته في الدعوة، وجراءته الخلقية واطلاعه الواسع الدقيق ما يحار به دارس التاريخ الذي اطلع على انحطاط هذا العهد ومجتمعه، ومراعاة العلماء وأصحاب الأقلام لمصالحهم الشخصية، ويأس الدعاة والمصلحين من إصلاح الأوضاع وتغير الأحوال"([1]) ونذكر هنا بعض النماذج فيما يلي:

خطابه للملوك والسلاطين: وقال مخاطبا للملوك والأمراء في عصره وحضهم على الجهاد في سبيل الله وأنكر على إخلادهم وتثاقلهم إلى الأرض فقال:

" أيها الملوك! المرض عند الملأ الأعلى أن تسلوا السيوف ولا تغمدوها حتى يجعل الله فرقانا بين المسلمين والمشركين وحتى يلحق مردة الكفار والفساق بضعفاءهم لا يستطيعون لأنفسهم شيئا،

(1) رجال الفكر والدعوة في الإسلام 255/4

وهو قوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فإذا ظهر الفرقان فرضا الملأ الأعلى أن تنصبوا في كل مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة أيام أميرا عادلا يأخذ للمظلوم حقه من الظالم ويقيم الحدود ويجتهد أن لا يحصل فيهم بغي ولا قتال ولا ارتداد ولا كبيرة، ويفشوا الإسلام ويظهر شعائره ويأخذ بفرائضه كل أحد ويكون لأمير كل بلد شوكة يقدر بها على إصلاح بلده، ولا يكون له شوكة يتمتع بسببها ويعصى على السلطان، وينصب في كل إقليم كبير أميرا يقلده القتال فقط يكون جمعه اثني عشر ألفا من المجاهدين لا يخافون في الله لومة لائم يقاتلون كل باغ وعاد.

فاذا كان ذلك فرضا الملأ الأعلى أن يفتش حينئذ من النظامات المنزلية والعفو ونحوهما حتى لا يكون شيئ إلا موافق الشرع حتى يأمن الناس من وجه"

خطابه للأمراء وأركان الدولة: وأقول للأمراء: يا أيها الأمراء ! ألا تخافون الله ؟ اشتغلتم باللذات الفانية الداثرة، وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضا،أما شربت الخمور جهرا وأنتم لا تنكرون؟ أما بنيت منازل ودور للزنا وشرب الخمر والقمار وأنتم لا تغيرون؟ أما هي البلاد

الكبيرة لم يضرب فيها حد منذ ست مأة سنة، من وجدتموه ضعيفا أكلتموه ومن وجدتموه قويا تركتموه وعتوه، وخاضت أفكاركم في لذائذ الطعام ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور، وما رفعتم إلى الله رأسا، وما ذكرتموه إلا بألسنتكم في حكاياتكم كأنكم تريدوون باسم الله انقلاب الزمان، وتقولون: "الله قادر على كذا" وتعنون أن الزمان قد ينقلب كذلك"....

خطابه للجيش والعسكرية: "وأقول للعسكرية :، أيتها العسكرية ! أخرجكم الله للجهاد ولتظهروا كلمة الحق وتكبتوا الشرك وأهله، فتركتم ما أخرجكم لأجله، واتخذتم رباط الخيل وحمل السلاح كسبا تستكثرون به أموالكم من غير نية الجهاد وقصده، شربتم الخمر وحلقتم اللحى وأعفيتم الشوارب وظلمتم الناس، ولم ينالوا مما تأكلون، فوالله إلى الله سوف ترجعون، فينبئكم بما كنتم تعملون، كان مرضي الحق فيكم أن تزيوا بزي الصالحين من الغزاة، وأعفوا اللحى وقصوا الشوارب، وصلوا الصلوات الخمس، واتقوا الله في أموال الناس واصبروا في الحرب والبأس، وتعلموا رخص الصلوات كالقصر

والجمع وترك السنن والتيمم فتمسكوا بها، وعضوا على الفرائض، وأصلحوا نياتكم يبارك لكم ربكم وينصركم على أعدائكم".

خطابه للتجار والأثرياء: "أقول للمحترفة: ضاعت أماناتكم، وذهلتم عن عبادة ربكم، وأشركتم بربكم، وذبحتم لطواغيتكم، وحججتم إلى "المدار" و"السالار" ([1]) بئس صنيعكم ذلك، ورب إنسان منكم جعل الطيرة ماله وكسبه فجعل يتكلف في لباسه وزيه ومطعمه ما لا يكفي له كسبه فيضيع حقوق نسائه، ورب إنسان منكم اكتفى بشرب الخمور فيضيع معاشه ومعاده، إن الله هيأ لكم من الكسب ما يكفي لكم ولذوي حقوقكم، إن أنتم اقتصدتم اكتفيتم، وبما يكون بلغة إلى المعاد، وكفرتكم بنعمة ربكم، أسأتم التدبير، أما تخافون عذاب جهنم وبئس المهاد، واصرفوا غدائكم وعشيتكم في ذكر الله وطول النهار في حرفتكم، والليل في نسائكم، واجعلوا الصرف أقل من الدخل، فما غبر فواسوا فيه الغريب والفقير، وذروا شيئا لنوائبكم ولحوائجكم فإن خالفتم في هذه فقد أسأتم التدبير"

(1) هذه أسماء لبعض أضرحة الصالحين يتجه الناس إليهم ويقومون بالاستمداد منهم،

خطابه للعلماء والمتعلمين: " أقول لطلبة العلم :أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء! اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعاني، وظننتم أن هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله أن تتعلموها بتفسير غريبها، وسبب نزولها وتأويل معضلها، أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ وكيف توضأ وكيف قضى لحاجته؟ وكيف يصوم وكيف يحج وكيف يجاهد وكيف كان كلامه وحفظه للسانه وكيف كان أخلاقه؟ فاتبعوا هديه واعملوا بسنته على أنه هدى وسنة لا على أنه فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة أن تتعلموا ماكان أركان الوضوء وماكان أركان الصلاة وما نصاب الزكاة وما قدر الواجب وما سهام فرائض الميت؟ أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل، وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من الآخرة، إنماهي علوم الدنيا".

هذه الخطبة كانت بمثابة دعوة صارخة صريحة موجهة إلى العلماء والطلاب من قبل الإمام لأن يغيروا في خطتهم التعليمية والتربوية، فإنه يجب قبل كل شئ التركيز على علوم القرآن والسنة بما فيها من روح وأسرار وحكم وأخلاق ومبادئ محكمة فطرية للحياة

الإنسانية، كما يجب الجمع بين التعليم والتزكية، بين المطالعة والمدارسة والعمل والتطبيق، ويجب الابتعاد عن كل مالا يمت بصلة إليهما.

خطابه للعباد الجهال : " أقول للمتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في الخانقاهات (الزوايا): ياأيها المتنسكون ! ركبتم كل صعب وذلول، وأخذتم كل رطب ويابس، ودعوتم الناس إلى الموضوعات والأباطيل، وعسرتم على الخلق وإنما بعثتم ميسرين لا معسرين، وتمسكتم بكلام المغلوبين من العشاق، وكلام العشاق يطوى ولا يروى، واستنبطتم الوسواس وسميتموه "الاحتياط" وكان مرضي الحق فيكم أن تفهموا الإحسان بجزئيه الاعتقادي والعملي، فتحصلوه من غير أن تخلطوا به أحوال المغلوبين وإشارات المكاشفين، فادعوا الناس إليه، أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى ما جاءكم به محمد ﷺ، أكان يفعل فعلكم هذا أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفاعيل"

خطابه لأولاد المشايخ والمرشدين: " أقول لأولاد المشايخ المترسمين برسم آباءهم من غير استحقاق: يا أيها الناس! مالكم

تحزبتم أحزابا، واتبع كل ذى رأي برأيه، وتركتم الطريقة التي أنزلها الله على لسان محمد ﷺ رحمة بالناس ولطفا بهم وهدى لهم، فانتصب كل واحد منكم إماما، ودعا الناس إليه، وزعم نفسه هاديا مهديا وهو ضال مضل، نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمنا قليلا، أو يشوبوا أغراض الدنيا بتعلم علم، إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل الهداية، ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم، هؤلاء قطاع الطريق دجالون كذابون مفتونون فتانون، إياكم وإياهم، لا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ولم يدع إلى نفسه، ولا نرضى بإشاعة الإشارات الصوفية في المجالس والمحافل، إنما المرضي الإحسان، أما لكم عبرة في قول الله تبارك وتعالى: (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" .

خطابه لعامة المسلمين: " أقول لجماعات المسلمين عموما خطابا واحدا: يا معاشر بني آدم! غلب عليكم الشح واستحوذ عليكم الشيطان، وزئرت النساء على الرجال وغمط الرجال على النساء، واستطبتم الحرام واستبشعتم الحلال، فوالله ما كلف الله نفسا إلا ما

تطيق، عالجوا شهوة فروجكم بالنكاح وإن كثرن، ولا تتكلفوا في نفقتكم وزيكم مما لا تطيقون، ولا تزر وازرة كأنها معلقة، ولا تضيقوا الأمور على أنفسكم، فإنكم إن ضيقتم خرجت نفوسكم إلى حد الصفق، وإن الله يحب أن يوخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، وعالجوا شهوة بطونكم بالأطعمة، واكتسبوا قدر مايكفيكم، ولا تكونوا كلا على الناس تسألونهم فلا يعطونكم، ولا تكونوا كلا على الخلفاء والأمراء ، إنما المرضي لكم الكسب بأيديكم، إلا عبد ألهمه الله أن الله يكفيك ويعصمك من آفات الفقر، يا معشر بني آدم! من رزقه الله مسكنا يؤويه ومشربا يرويه ومطعما يشبعه وملبسا يستره ومنكحا يحصن فرجه ويعاونه في معيشته فقد أدى له الدنيا بحذافيرها فليشكر الله، وليكن من شأنه القناعة والقصد في المعيشة، ولينتهز الفرصة للذكر وليحافظ على ثلاثة أوقات: الغدوة والعشية والسحر، وليذكر الله بالتهليل والتسبيح وتلاوة القرآن، واستمعوا الحديث واحضروا حلق الذكر، يا معشر بني آدم! اتخذتم رسوما فاسدة تغير الدين، اجتمعتم يوم عاشوراء في الأباطيل، فقوم اتخذوه مأتما، أما تعلمون أن الأيام أيام الله وأن الحوادث من مشيئة الله، وإن كان حسين رضي الله عنه قتل في هذا اليوم فأي يوم من الأيام لم يمت فيه محبوب من

المحبوبين، وقد اتخذوه لعبا بحرابهم وسلاحهم، وقوم اتخذوه منسكا، أف لصنيعكم! اجتمعتم يوم البراءة يلعب قوم، ويزعم قوم أنه يجب إكثار الأطعمة للموتى، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، ورسوما تضيق عليكم كالإفراط في الولائم وكالامتناع عن الطلاق وكإمساك المرأة بعد زوجها من النكاح، فضيعتم أموالكم وأوقاتكم في الرسوم وتركتم الهدى الصالح، وكان المرضي أن لا تتخذوا هذه الرسوم، وأن تتخذوا رسوما سهلة ليس فيها ضيق، اتخذتم المأتم عيدا كأن إكثار الطعام واجب عليكم، وضيعتم الصلوات، وقوم اشتغلوا بمكاسبهم فلم يقدروا على الصلوات، ومنشأ هذا الفساد أنهم ما أخذوا رخص الله، وقوم اشتغلوا بتزجية الوقت وترفيهه بالحكايات والأحاديث، فلو أنهم اتخذوا مجالسهم في رحب حول المساجد يسهل عليهم الصلوات، وضيعتم الزكاة ، وما من غني إلا له متعلقون من المحاويج يطعمهم ويواسيهم، ولو أنه نوى الزكاة والعبادة لكفاه، وضيعتم صوم رمضان، فضيع قوم لأنهم صاروا عسكرية لا يقدرون على الصوم مع ما هم عليه من المحنة، اعلموا أنكم أسأتم التدبير وصرتم عيالا على السلطان ولما لم يجد السلطان ما يعطيكم، ضيق على الرعية، فما أقبح

صنيعكم هذا، وقوم لا يتحسرون ولا يجتنبون أعمالا شاقة، وذلك من سوء تدبيرهم وعقلهم"([1])

ولا شك أن هذه الخطابات كلها كانت بمثابة دعوة صارخة صريحة لتوجيه الأمة الإسلامية الهندية، يوم كانت تعاني بشتى المشاكل وأنواع الانحلال والانهيار الخلقي والديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، ونستطيع أن ندرك من خلال هذه الدعوة الصريحة إلى المجتمع معرفة الإمام بأهل زمانه، وأنه جس نبض المجتمع وذكره بعلله وأدوائه وأسقامه، وأنه كيف حدد مواضع الضعف والخلل والفوضى في جميع شعب الحياة، ولما رأى المجتمع المتشتت المنتشر الذي كان قد تزعزع كيانه وتزلزل بنيانه ورأى هذه الفوضى والأدواء الخلقية والدينية ذاب قلبه ذوبان الملح في الماء وتململ لهذا الوضع السيء الأليم، فخرجت هذه الدعوة من قلب مكلوم وقلب مؤمن واع حساس عارف خبير.

(1) راجع التفهيمات الإلهية 1/215-218

دور الإمام الدهلويؒ في خدمة القرآن وعلومه

لقد كان القرآن الكريم كتابا مهجورا في المدارس والمعاهد العلمية آنذاك، وكان عامة المسلمين لا يستطيعون فهم القرآن لجهلهم بلغته وعجز علماءهم بمعر فته،كانت القلوب مقفلة عن التدبر في كتاب الله والتفكر في آياته، وكان ذلك مصدر كل انحراف ومنشأ كل فساد وضلال في العقيدة والسلوك، يقول الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي: " وقد كان من الحقائق المسلم بها ليس في الهند فحسب، بل في جميع البلدان العجمية تقريبا– بما فيها تركستان وأفغانستان والبلدان المجاورة للهند ، وكانت ميولها ونزعاتها وأعمالها وأذواقها وحقائقها المعترف بها عندها تظل على الأوساط العلمية والدينية وتؤثر عليها– أن القرآن الحكيم إنما هو كتاب الخاصة ليطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه، وأن فهمه يتوقف على معرفة أكثر من اثني عشر علما، وأن نشره في العامة، وتوعيتهم مباشرة بمعانيه ومطالبه، والدعوة العامة إلى استهدائه والاستيضاء به والاستفادة منه مباشرة خطر شديد، وضلال كبير، وفتح لباب فتنة مستطيرة، وإنها دعوة إلى الاضطراب الفكري في العامة، والقول

بالرأي، والاستغناء عن العلماء، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم والتمرد والطغيان" ([1])

فكانت الحاجة ماسة إلى تبليغ معاني القرآن وأحكامه ، وإحياء القرآن والسنة، جعل الإمام الدهلوي هذه الحاجة الأكيدة موضع العناية والاهتمام به، فبدأ بإقامة حلقات القرآن في المساجد يحضرها المسلمون ويتعلمون كتاب الله، ثم قام بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية وزود ببعض التعليقات والفوائد، وكان لها صدى وأثر ملموس على المسلمين عامتهم وخاصتهم، وإن نظرة واحدة في كتابه " فتح الرحمن في ترجمة القرآن " وغيره تعطي صورة واضحة عن عناية الإمام بعلم التفسير وعن مكانته وبعد نظره وسلامة فهمه لأصوله وأسراره، يقول في كتابه: "تحفة الموحدين" :

"ويطلق بعض الناس بأن القرآن الكريم والحديث الشريف لا يمكن أن يفهمها إلا من درس العلوم الكثيرة، وقرأ الكتب التي لا تحصى، ويكون "علامة عصره" ويرد الله تعالى عليهم فيقول: (هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم

(1) رجال الفكر والدعوة للندوي114/4

الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) فقد كان النبي ﷺ أميا وأصحابه أميين، ولكن رسول الله ﷺ لما تلا على أصحابه آيات الكتاب الحكيم هذه تزكت بها قلوبهم وصفت بها نفوسهم، فلو كان الأمي لا يمكنه أن يفهم القرآن والسنة، ولا يملك صلاحية لفهمه وإدراكه فكيف أمكن للصحابة أن يتزكوا بها ويتطهروا من الشرور والمفاسد، ويا أسفى على قوم يدعون فهم "صدرا"([1]) وعلم "القاموس" ولكنهم يتظاهرون بأنهم مجرد جهلة فيما يتعلق بفهم القرآن والحديث، ويقول بعضهم : نحن المتأخرون زمنا فأنى لنا بركات عهد النبي ﷺ وسلامة قلوب الصحابة رضي الله عنهم حتى ندرك مغزى القرآن والحديث، ويرد الله تعالى على ذلك: (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) أي أن المتأخرين سواء كانوا مثقفين أو أميين إذا كانوا مسلمين وعزموا على سلوك طريق الصحابة الميامين، وأصغوا بآذانهم إلى الكتاب والسنة، فإنهما كفيلان لهم أيضا بتزكية قلوبهم وتصفية نفوسهم، ويقول الله تعالى: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) فكيف يتسنى لدارسي "الكافية" وعلماء " الشافية" أن يتظاهروا بعجزهم عن فهم معنى الكتاب الذي كان يفهمه

(1) (كتاب شرح هداية الحكمة لصدر الدين الشيرازى فى الفلسفة)

العرب البدو ويدركون حقيقته ومغزاه، ويقول الله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن) فلولم يكن القرآن ميسرا فكيف يتمكن من التدبر فيه: (أم على قلوب أقفالها) ورغم أنه ليست على قلوبهم أقفالها فلماذا لا يعملون عقولهم في تدبره ولا يتفكرون"([1])

وإن منهجه في علم التفسير هو منهج السلف، ويلتزم الإمام في تفسيره خاصة بالتطبيق بين الآيات والأحكام والأخبار والمشاكل التي عاصرها، ولا يرى الإمام أن يفسر القرآن الكريم برأي لا يستند إلى دليل شرعي ، قال في حجة الله البالغة في مبحث الاعتصام بالكتاب والسنة:

"قوله ﷺ : من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" أقول : يحرم الخوض في التفسير لمن لا يعرف اللسان الذي نزل القرآن به، والمأثور عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين من شرح غريب وسبب نزول وناسخ ومنسوخ"([2])

(1) نقلا عن رجال الفكر والدعوة للندوي 114/4

(2) حجة الله البالغة 172/1

وقد ألف رسالة في علم التفسير لم تسبق "الفوز الكبير في أصول التفسير" وإن هذه الرسالة من أروع وأبدع ماألف في الموضوع، ولا يوجد له نظير فيما خلد علماؤنا من تراث علمي في هذا الموضوع في القديم والحديث، قال في مقد مته:

"إنه لما فتح الله علي بابامن كتابه الحكيم خطر لي أن أقيد الفوائد النافعة التي تنفع إخواني في تدبر كلام الله عزوجل وأرجو أن مجرد فهم هذه القواعد يفتح للطلاب طريقا واسعا إلى فهم معاني كتاب الله تعالى، وأنهم لو قضوا أعمارهم في مطالعة كتب التفسير أو قراءتها على المفسرين، على أنهم أقل قليل في هذا الزمان، لا يظفرون بهذه القواعد والأصول بهذا الضبط والتناسق"([1]).

ويجدر بنا أن نقدم أهم محتويات هذه الرسالة حتى نكون على إلمام بدقة نظر الإمام الدهلوي وإمعانه وتضلعه في علم القرآن، ومن أهم موضوعات هذه الرسالة: معاني القرآن الكريم التي يشتمل عليها القرآن الكريم، وخصائص الأسلوب القرآني، وسبب النزول،

(1) الفوز الكبير ص: 16 – ترجمة الشيخ سلمان الحسيني الندوي من أصل الفارسي

وبيان عقائد وشبهات الفرق الباطلة الضالة التي يحاجها القرآن الكريم، شرح الإمام عقائدهم وبين أسباب ضلالهم وذكر كيف يخاصمهم القرآن الكريم ببراهين قاطعة وأدلة قوية، ثم تناول الإمام موضوع الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم وبين فيه خلاف المتقدمين والمتأخرين، وقدم في الموضوع نظريته المتزنة كما بين حقيقة اختلاف الصحابة والتابعين في التفسير وحقيقة أسباب النزول بأسلوب لم يسبق له نظير فيما سبق من الزمن، وإليك بعض النماذج فيما يلي، قال الإمام فى شرح ما يشتمل عليه القرآن الكريم من موضوعات:

"ليعلم أن المعاني التي يشتمل عليها القرآن لا تخرج عن خمسة علوم:

1- علم الأحكام: كالواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، سواء كانت من قسم العبادات أو من قسم المعاملات، أو الاجتماع أو السياسة المدنية، ويرجع تفصيل هذا العلم وشرحه إلى الفقيه.

2- علم الجدل: وهي المحاجة مع الفرق الأربعة الباطلة: اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، ويرجع شرح هذا العلم وتفريعه إلى المتكلم.

3- علم التذكير بآلاء الله : كبيان خلق السماوات والأرض وإلهام العباد ما يحتاجون إليه، وبيان الصفات الالهية،

4- علم التذكير بأيام الله: وهو بيان تلك الوقائع والحوادث التي أحدثها الله تعالى إنعاما على المطيعين ونكالا للمجرمين، كقصص الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات ومواقف شعوبهم وأقوامهم معهم،

5- علم التذكير بالموت وما بعد الموت: كالحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار، ويرجع تفصيل هذه العلوم وبيانها وذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بها إلى الواعظ والمذكر".

وقد جاءت هذه العلوم في القرآن الكريم على طريقة العرب الأولين، لا على منهج العلماء المتأخرين، فلم يلتزم في آيات الأحكام منه طريق الإيجاز والاختصار كمؤلفي المتون الفقهية، ولا طريق تنقيح الحدود القيود، كما يفعله الأصوليون، وقد التزم في آيات الجد والمخاصمة إيراد الأدلة المشهورة والبراهين الخطابية، لا تنقيح البراهين وتقسيمها على طريقة المنطقيين"([1])

([1]) الفوز الكبير في علم التفسير / المبحث الأول

وأما الموقف الذي اختاره الإمام الدهلوي في بيان سبب النزول للآيات القرآنية موقف ممتاز ولا يوجد له نظير في المكتبة الإسلامية على هذا الموضوع، وحينما ينظر أحد في كتب التفسير بالمأثور يراها مملوءة بقصص وآثار كثيرة تروى في سبب النزول، وطالما تختلف وتتعدد، يقول الإمام بهذا الصدد:

"وقد ربط عامة المفسرين كل آية من آيات الأحكام وآيات المخاصمة بقصة تروى في سبب نزوله، وظنوا أنها هي سبب النزول، والحق أن نزول القرآن الكريم إنما كان لتهذيب النفوس الإنسانية، وإزالة العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة، فالسبب الحقيقي – إذن– في نزول آيات المخاصمة هو وجود العقائد الباطلة في نفوس المخاطبين، وسبب نزول آيات الأحكام إنما هو شيوع المظالم ووجود الأعمال الفاسدة فيهم، وسبب نزول آيات التذكير بآلاء الله وأيامه وبالموت إنما هو عدم تيقظهم وتنبههم بما يرون ويمرون عليه من آلاء الله وأيامه، وحوادث الموت وما سيكون بعده من وقائع هائلة، أما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التي تجشم بيانها المفسرون فليس لها دخل في ذلك إلا في بعض الآيات الكريمة..."([1])

(1) نفس المصدر ص: 19– 20

كـذلك ذكـر الإمـام الـدهلوي أن مـن المواضـع الصـعبة فـي القـرآن الكـريم التـي تكثـر مباحثهـا والخـلاف فيهـا: معرفـة الناسـخ والمنسوخ، وبين الإمام أن من أقوى وجوه هذه الصعوبة هو اختلاف الاصـطلاح بين المتقـدمين والمتـأخرين، وتعقـب الإمـام الـدهلوي علـى السيوطي وابن العربي على موقفهما في الآيات المنسوخة، والبحث رائـع جـدا وغيـر مسـبوق إليـه، ولا شـك أن دور الإمـام الـدهلوي فـي خدمـة القـرآن الكـريم دورا مشـرقا رائـدا، لقـد فـتح مجـالا للعلمـاء والدارسين بل المسلمين في الهند أن يتدبروا في الكتاب والسنة في العصـر الـذي كـان التـدبر والخـوض فيهمـا والأخـذ مـن المصـدرين الأساسيين محظورا متروكا، يقول الشيخ الإمام أبوالحسن علي الندوي

"ويخيل إلينا أن الصخرة الصلدة التي كانت تحول في سبيل ترجمة القرآن الكريم ونشره بين الناس أزيحت بهذه الخطوة الجريئة التي قام بها شخصية جليلة كالإمام الدهلوي "([1]) .

(1) رجال الفكر والدعوة للندوي 4!118

دور الإمام الدهلوي في خدمة السنة وعلومها

وأما السنة النبوية الشريفة فنحاول أن نذكر فيما يلي من دور الإمام الدهلوي ومنهجه وخدمته في هذا المجال، لقد دخل علم الحديث في الهند في أوائل الفتح الإسلامي، ولكنه أتى على الهند حين من الدهر أصبحت فيه مفلسة في علم الحديث النبوي الشريف، زهد فيه العلماء والمشايخ وخلت منه المداس والزاويات، وطغت كتب المنطق والفلسفة، والعلوم العقلية وتخريجات المتأخرين فكانت تدرس على حساب الحديث الشريف، وغلبت تعبيرات المتصوفة ومصطلحاتهم على التعبير النبوي، ونحن نرى الإمام الدهلوي قام بدوره الفعال المشرق في إحياء السنة المطهرة مستخدما في ذلك جميع الوسائل من الكتابة والخطابة والوعظ والإرشاد والرسائل وتوجيه النصائح للعامة والخاصة.

بدأ بتدريس السنة النبوية في مدرسته، فسرعان ما أصبحت مرجعا لطلبة العلم ومأوى لهم، وهكذا خرجت الهند من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن البدع إلى السنة، ومن الغفلة إلى الصحوة، ومن التخلف إلى التقدم ، وعاد به علم الحديث غضا طريا بعد ما كان

شيئا فريا، وإن ما نراه اليوم من ذيوع السنة النبوية وانتشارها في الهند – بل ما أحرزت الهند من المكانة القيادية في حمل علوم القرآن والسنة، و ما قامت فيها من المدارس والمؤسسات العلمية والحركات الإصلاحية يرجع فضل كل ذلك إلى الإمام الدهلوي، وإنما هى ثمار وفروع لهذه الغريسة الطيبة التي غرسها الإمام الدهلوي، وسقاها أبناءه وتلاميذه بجهودهم.

وإن منهجه في الحديث ينبئ عن التطبيق الدقيق والفهم العميق لروح السنة المطهرة والرجوع إليها في كل صغير وكبير، وعن فكرته المتزنة وقدرته البالغة على استنباط الأحكام، وكتابه "المصفى" الذي تكلم فيه ككلام المجتهدين خير دليل على منهجه، كما يمتاز أسلوبه في شرح الحديث بمراعاة مستوى الطالب العلمي والعقلي ، صرح بذلك في "أنفاس العارفين " حيث قال:

"إن الأساليب الرائجة في الحرمين الشريفين لتدريس الحديث ثلاثة :

أحدها : أسلوب السرد والإجمال: أي أنه يقتصر الشيخ أو القاري على مجرد القراء ة، ولا يتعرض بالمباحث اللغوية والفقهية، وبأسماء الرجال.

والثاني : أسلوب البحث : أي أنه يقف الشيخ على الألفاظ الغريبة والمشكلات التركيبية وأسماء الرواة الذين لا يعرفون أو الذين يقل ذكرهم، فيحلها ويشرحها شرحا متوسطا بين الإيجاز والإطناب،كذلك يرد على الإشكالات الواردة في نص الحديث نفسه، ويشرح المسائل التي تؤخذ من عبارة النص.

والثالث : أسلوب الإمعان والتعمق ؛ هو أن يبحث الشيخ عن جمع ألفاظ الحديث، ويذكر كل مالها وما عليها، فإذا ورد لفظ غريب مثلا استشهد له من كلام الشعراء، وأطال الكلام في بيان مواضع استعمال ذلك اللفظ، والمادة التي اشتق منها والألفاظ التي تماثله،كذلك يتكلم في جميع الرواة، ويقيس الحكم الذي ورد في الحديث على المسائل التي لم ينص عليها، ثم يبين الحكايات النادرة والقصص الغريبة لأدنى مناسبة بينهما"

ثم قال الإمام وأبدى رأيه عن هذه الأساليب ،فقال عن الأول:"إنه حسن ومفيد بالنسبة للمنتهين من الطلبة" وقال عن الثاني: " إنه مناسب ومفيد بالنسبة للطلبة المبتدئين والمتوسطين " وقال عن الثالث: "إنه أسلوب الواعظين وأصحاب القصص والروايات، ولايقصد به تحصيل و رواية الحديث" أي أنه ليس أسلوبا علميا،([1]) .

ومن أروع ما قدم الإمام الدهلوي من نظريات مهمة في علم الحديث هو تقسيمه لطبقات كتب الحديث في كتابه الفريد النادر "حجة الله البالغة "، قسم الإمام الدهلوي كتب الحديث على أربع طبقات أساسية باعتبار الصحة والشهرة، نذكر فيما يلي ملخص بحثه ، قال :

"الطبقة الأولى منحصرة بالاستقراء في ثلاثة كتب:"الموطا" "صحيح البخارى" وصحيح مسلم" قال الشافعى: أصح الكتب بعد كتاب الله موطا مالك، اتفق أهل الحديث على أن جميع ما فيه صحيح على رأي مالك ومن وافقه، وأما على رأي غيره فليس فيه مرسل ولا منقطع إلا وقد اتصل السند به من طرق أخرى، فلا جرم أنها

(1) أنفاس العارفين : 178

صحيحة من هذا الوجه، وقد صنف في زمان مالك مؤطآت كثيرة في تخريج أحاديثه و وصل منقطعه مثل كتاب ابن أبي ذئب وابن عيينة والثوري ومعمر وغيرهم ممن شارك مالكا في الشيوخ، وقد رواه عن مالك بغير واسطة أكثر من ألف رجل، وقد ضرب الناس فيه أكباد الإبل إلى مالك من أقاصي البلاد كما كان النبي صلى الله عليه وسلم ذكره في حديثه،([1]) فمنهم المبرزون من الفقهاء كالشافعي ومحمد بن الحسن

([1]) ولقد ثبت في شخصية الإمام مالك العملاقة قول رسول الله صلى الله عليه و سلم: " يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة "، رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.قال العلماء: وعالم المدينة هو مالك بن أنس وهو الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم. وفي رواية: "ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة".وفي لفظ: "يأتي على الناس زمان يضربون أكباد الإبل"، وفي لفظ :"يوشك أن يضرب الناس آباط الإبل يلتمسون العلم"، وفي لفظ "من عالم بالمدينة"، وفي لفظ "أفقه من عالم المدينة". وقد رواه النسائي، عن أبي هريرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يضربون أكباد الإبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة"، وفي رواية: "يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة"، ويروى عن ابن عيينة قال: كنت أقول: هو سعيد بن المسيب حتى قلت: كان في زمانه سليمان بن يسار وسالم بن عبد الله وغيرهما، ثم أصبحت اليوم أقول: إنه مالك لم يبق له نظير بالمدينة. وقال الشافعي: وصدق وبر، إذا ذُكر العلماء فمالك النجم. قال الزبير بن بكار في حديث "ليضربن الناس أكباد الإبل": كان سفيان بن عيينة إذا حدث بهذا في حياة مالك، يقول: أراه مالكا

وابن وهب وابن القاسم، ومنهم نحارير المحدثين كيحيىٰ بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي وعبدالرزاق، ومنهم الملوك والأمراء كالرشيد وابنيه، وقد اشتهر في عصره حتى بلغ على جميع ديار الإسلام، ثم لم يأت زمان إلا وهو أكثر له شهرة وأقوى به عناية،([1]) وعليه بنى فقهاء الأمصار مذاهبهم حتى أهل العراق في بعض أمرهم، ولم يزل العلماء يخرجون أحاديثه ويذكرون متابعاته وشواهده ويشرحون غريبه ويضبطون مشكله ويبحثون عن فقهه ويفتشون عن رجاله إلى غاية ليس بعدها غاية ([2])، ....

---

(1) قال السيوطي:"الحظ الذي حصل لمالك ممن روى عنه لم يحصل قط لغيره، فإنه روى عنه الأكابر من كل طائفة من حفاظ الحديث والفقهاء خلائق كثيرون،ومن أئمة المذهب المتبوعين:أبوحنيفة، والشافعي،والأوزاعي،وسفيان الثوري،ومن الخلفاء: أمير المؤمنين المنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد، والأمين والمأمون ، ومن أقرانه جماعة، ومن شيوخه جماعة، منهم: الزهري،ويزيد بن عبد الله بن الهاد، وربيعة ويحيى بن سعيد" تزيين الممالك ص: 83

(2) قال الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي في المسوى شرح الموطأ باللغة الفارسية: " الموطأ أصح الكتب وأشهرها وأقدمها وأجمعها، وقد اتفق السواد الأعظم من الملة المرحومة على العمل به، والاجتهاد في روايته ودرايته، والاعتناء بشرح معضلاته ومشكلاته، والاهتمام باستنباط معانيه وتشييد مبانيه، ومن تتبع المذاهب ورزق الاتصاف علم لامحالة أن الموطأ عدة مذهب مالك وأساسه، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ونبراسه، وهذه المذاهب

أما الصحيحان على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع وأنهما متواتران إلى مصنفيهما، وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع غير متبع سبيل المؤمنين...."

الطبقة الثانية: كتب لم تبلغ مبلغ الموطا والصحيحين ولكنها تتلوها، كان مصنفوها معروفين بالعدالة والحفظ والتبحر في متون الحديث ولم يرضوا في كتبهم هذه بالتساهل فيما اشترطوا على أنفسهم فتلقاها من بعدهم بالقبول....كسنن أبي داود وجامع الترمذي ومجتبى النسائي.... وكاد مسند أحمد أن يكون من جملة هذه الطبقة فإن الإمام أحمد جعله أصلا يعرف به الصحيح والسقيم قال: ماليس فيه فلا تقبلوه...."

والطبقة الثالثة: مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخاري ومسلم وفي زمانهما وبعدهما جمعت بين الصحيح والحسن

بالنسبة إلى الموطأ كالشروح للمتون،وهو بمنزلة الدوحة للغصون، وعلم أيضا أن الكتب في السنن كصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي، وما يتعلق بالفقه من صحيح البخاري، وجامع رومه، مطمع نظرهم فيها وصل ما أرسله، ورفع ما أوقفه،واستدراك ما فاته، وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده" المسوى1/ 62 نقلا عن "الإمام مالك ومكانة كتابه الموطأ" / د.تقي الدين الندوي ص: 121.

والضعيف والمعروف والغريب والشاذ والمنكر والخطأ والصواب والثابت والمقلوب، ولم يشتهر في العلماء ذلك الاشتهار، وإن زال عنها اسم النكارة المطلقة، ولم يتداول ما تفردت به الفقهاء كثير تداول، ولم يفحص عن صحتها وسقمها المحدثون كثير فحص، ومنه مالم يخدمه لغوي لشرح غريب ولا فقيه بتطبيقه بمذاهب السلف ولا محدث ببيان مشكله ولا مؤرخ بذكر أسماء رجاله، ولا أريد المتأخرين المتعمقين وإنما كلامي في الأئمة المتقدمين من أهل الحديث فهي باقية على استتارها واختفاءها وخمولها كمسند أبي علي ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة ومسند عبد بن حميد والطيالسي وكتب البيهقي والطحاوي والطبراني، وكان قصدهم جمع ما وجدوه، لا تلخيصه وتهذيبه وتقريبه من العمل..."

الطبقة الرابعة؛ كتب قصد مصنفوها بعد قرون متطاولة جمع ما لم يوجد في الطبقتين الأوليين، كانت في المجاميع والمسانيد المختفية فنوهوا بأمرها وكانت على ألسنة من لم يكتب حديثه المحدثون ككثير من الوعاظ المتشدقين وأهل الأهواء والضعفاء أو كانت من آثار الصحابة والتابعين أو من أخبار بني اسرائيل أو من كلام الحكماء والوعاظ خلطها الرواة بحديث النبي ﷺ سهوا أو عمدا

أو كانت من محتملات القرآن والحديث الصحيح فرواها بالمعنى قوم صالحون لا يعرفون غوامض الرواية فجعلوا المعاني أحاديث مرفوعة أو كانت معاني من إشارات الكتاب والسنة جعلوها أحاديث مستبدة برأسها عمدا أو كانت جملا شتى في أحاديث مختلفة جعلوها حديثا واحدا بنسق واحد، ومظنة هذه الأحاديث "كتاب الضعفاء" لابن حبان و"كامل ابن عدي" وكتب الخطيب وأبي نعيم والجوزقانى وابن عساكر وابن النجار والديلمي، وكاد "مسند الخوارزمي" أن يكون من هذه الطبقة، وأصلح هذه الطبقة ما كان ضعيفا محتملا وأسوؤها ما كان موضوعا أو مقلوبا شديدة النكارة، وهذه الطبقة مادة كتاب الموضوعات لابن الجوزى..."

ثم بعد هذا التقسيم الدقيق قال الإمام : " إن هناك قسما آخر وهو ما اشتهر على ألسنة الفقهاء والصوفية والمؤرخين ونحوهم وليس له أصل في هذه الطبقات الأربع" ثم بين الإمام حكم كل نوع من هذه الطبقات فقال :

"أما الطبقة الأولى والثانية: فعليهما اعتماد المحدثين وحوم حماهما مرتعهم ومسرحهم، وأما الثالثة فلا يباشر للعمل عليها والقول

بهـا إلا النحـارير الجهابـذة الـذين يحفظـون أسـماء الرجـال وعلـل الأحاديث، نعم، ربما يؤخذ منها المتابعات والشواهد.... وأما الرابعة: فالاشتغال بجمعها أو الاستنباط منها نوع تمعق من المتأخرين"([1])

وإن هذا البحث القيم النادر يدل دلالة واضحة على علو كعبه ومنزلته وبعد نظره وسعة اطلاعه على مجاميع الحديث ودقة نظره وفهمه الصحيح وذوقه الجميل، وكان الإمام الدهلوي يفضل موطا مالك ويقدره، ومن رأيه أنه قال: إن مصدر كل من المذهب الحنفي والشافعي واحد، وهو موطا الإمام مالك قال في المسوى:

"من تتبع مذاهبهم ورزق الإنصاف من نفسه علم لا محالة أن الموطا عدة مذهب مالك وأساسه، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة ونبراسه، وهذه المذاهب بالنسبة للموطا كالشروح للمتون، وهو منها بمنزلة الدوحة من الغصون"([2]).

وكان أسلوب الإمام الدهلوي أسلوبا ممتازا في شرح الحديث النبوي الشريف، فإنه كان من دأب شراح الحديث: الخوض في

(1) حجة الله البالغة: 1/ 133– 135

(2) المسوى1/ 62

المسائل الفرعية والإقتصار على استدلال المذاهب الفقهية والانتصار لمذهب يتبعونه، والرد على مذهب يخالفهم في ضوء الأحاديث النبوية، وذلك على حساب استنباط الحكم والأسرار واستخراج البراهين والأدلة العقلية والفطرية التي تشتمل عليها كنوز السنة المطهرة، و على حساب التفكر والتدبر السليم في العبر والمواعظ والدروس التربوية العظيمة التي هي من خواص أقوال النبي ﷺ المعصوم الذي ما ينطق عن الهوى، إن هو الا وحي يوحى، ولا شك أن ذلك المنهج الذي كان فيه اعتناء زائد بالخلافات الفقهية والتعمقات أدى العلماء إلى مراجعة كتب الفلاسفة والمتكلمين، وحملهم على مطالعة كتب الصوفية وكتب المنطق والجدال والمناظرة فإنهم وجدوا فيها ما يسد جوعهم ويبل غلتهم، فما بقي من العلم إلا نزاعات ومناظرات ومجادلات كلامية وانتصارات للمذاهب الفقهية وجمود على المنقولات والمتونات، رأى الإمام الدهلوي هذا الأسلوب فمقته وكرهه ، وقدم منهجا أصوليا متزنا عادلا، وألف لذلك "حجة الله البالغة" كتابه الفريد النادر العظيم، وتناول فيه مجموعة من الأحاديث التي تشتمل على القواعد والأسس التي بنيت الأحكام عليها، وشرح الأسرار والحكم المستنبطة من تلك الأحاديث، وكذا

أضاف الإمام الدهلوي علما جديدا عظيما، كان فيه جمع بين الأصالة والمعاصرة وإشراق من الابتكار والاجتهاد، يقول الإمام الدهلوي في مقدمة "حجة الله البالغة":

"هـذا، وإن أدق الفنـون الحديثيـة بأسـرها عنـدي وأعمقهـا محتـدى وأرفعهـا منـارا وأولـى العلـوم الشـرعية عـن آخرهـا فيمـا أرى، وأعلاها منزلة وأعظمها مقدارا هو علم أسرار الدين، الباحث عن حكم الأحكام ولِمِّيَّاتِها، وأسرار خواص الأعمال ونكاتها، فهو– والله أعلم– أحق العلوم بأن يصرف فيه من إطاقة نفائس الأوقات ويتخذه ويأخذه عدة لمعاده بعد ما فرض عليه من الطاعات، إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع.... لكن قل من صنف فيه أو خاض في تأسيس مبانيه أو رتب منه الأصول والفروع، وأتى بما يسمن ويغني من جوع"([1]).

(1) حجة الله البالغة 3/1

دور الإمام في مجال الفقه الإسلامي

كان عصر الإمام الدهلوي عصر النزعة التقليدية التي كانت تملك مشاعر أهل العلم وتسيطر على عقولهم وهي التي أوجدت فراغا هائلا في مجال الاجتهاد، وليت شعري أن الاجتهاد أصبح شيئا كان قدراً مقدوراً للأسلاف فحسب، ولم يكن للأخلاف منه نصيب، وأصبح في أوساطهم كالكبريت الأحمر، وكان الفقه المأثور ثروة حياتهم وكتب المتأخرين والفتاوى رأس مالهم، عليها يعكفون ويقبلون، وإليها يرجعون ويأوون، ولها يجادلون ويحاجون، وحولها يجاهدون ويدندنون، بل لأجلها يضللون ويفسقون ويكفرون أحيانا، وكانت الحرب الشعواء، حرب المناظرات والمجادلات والمحاكمات والمخاصمات قائمة على قدم وساق، لقد انتقد الإمام هذا الوقع الأليم بجد واهتمام ونادى بقوته:

" ترى العامة سيما اليوم في كل قطر يتقيدون بمذهب من مذاهب المتقدمين ويرون خروج الإنسان من مذهب من قلده ولو في

مسئلة كالخروج عن الملة كأنه نبي بعث إليه أو افترضت طاعته عليه"([1]).

في هذا التيار الجارف والعاصفة الهوجاء من التقليد والتعصب المذهبي الذي لا طائل وراءه، وكانت تضيع فيها الأمة قواها العلمية والفكرية قدم الإمام الدهلوي فقها متزنا عدلا، لا إفراط فيه ولا تفريط، قام الإمام في وجه هذا الاتجاه الخاطئ بكل قوة، وكان من فكره أن يجمع بين فقه الأئمة الأربعة فيما اتفقوا عليها، ويؤخذ ما هو أوفق بالسنة النبوية فيما اختلفوا فيها، ومن آراءه التجديدية أنه قال: إن مصدر كل من المذهب الحنفي والشافعي واحد –كما ذكرنا سابقا– وهو موطا الإمام مالك، قال في المسوى :"من تتبع مذاهبهم ورزق الإنصاف من نفسه علم لا محالة أن الموطا عدة مذهب مالك وأساسه، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة ونبراسه، وهذه المذاهب بالنسبة للموطا كالشروح للمتون، وهو منها بمنزلة الدوحة من الغصون"

(1) التفهيمات الإلهية 151/1

موقف الإمام من التقليد والاجتهاد : ولعل موضوع الاجتهاد والتقليد من الموضوعات التي كثر فيها الشقاق والخلاف، واشتد النزاع فيما بين العلماء قديما وحديثا، وكثرت الآراء والمؤلفات، ما بين إفراط وتفريط، وغلو وتقصير، ما بين حرية جامحة فكرية وبين إهمال لجوهرة العقل، وإن الإمام الدهلوي قدم نظريات مهمة دقيقة وآراءا متزنة عادلة في الموضوع، وكتب عن هذا الموضوع في "حجة الله البالغة " و"التفهيمات الإلهية" وفي كتاب "عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد" وفي عدة كتبه تناول هذا الموضوع، ([1]).

كما بين الإمام حقيقة اختلافات الفقهاء وأسبابها، وقال: "إن المسائل التي كانت مثارا للجدل والشقاق لم يكن الخلاف فيها للفقهاء في أصل المشروعية بل كان في ترجيح أحد القولين، وكلهم

([1]) وقد جادت يراعة شيخنا أبي يوسف السيد سلمان الحسيني الندوي حفظه الله ورعاه في هذا الموضوع، وكتب بحثا قيما علميا على موضوع : "الاجتهاد والتقليد في ضوء كتابات الإمام الدهلوي ومكانته الفقهية" وطبع هذا الكتاب من "معهد الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي للدعوة والفكر الإسلامي في جامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لكناؤ".

أخذوا بأقوال الصحابة وبنوا عليها مذاهبهم" أوضح الإمام هذه النقطة وقطع قول كل خطيب، وأتى بأمثلة كثيرة إيضاحا للمطلوب، قال:

"إن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء لا سيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق وتكبيرات العيدين، وتشهد ابن عباس وابن مسعود، والإخفاء بالبسملة وبآمين، والإشفاع والإيتار في الإقامة، ونحو ذلك – إنما هى ترجيح أحد القولين ، وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية، إنماكان خلافهم في أولى الأمرين....ولا ترى أئمة المذاهب في هذه المواضع إلاوهم يضجعون القول ويبينون الخلاف، يقول أحدهم : هذا أحوط، وهذا هو المختار، وهذا أحب إلي، ويقول:ما بلغنا إلا ذلك، وهذا كثير في المبسوط وآثار محمد و كلام الشافعي: "

كذلك فرق الإمام بين أقوال الأئمة وتخريجات المتأخرين، وبين حدود الاجتهاد والتقليد وحقيقتهما، واختار الوسط بين مدرستي الأثر والرأي، وقدم نظرية دقيقة مهمة لتنقيح المذهب الحنفي، قال في كتابه "فيوض الحرمين": " إن في المذهب الحنفي طريقة أنيقة هي أوفق الطرق بالسنة المعروفة التي جمعت ونقحت في زمن البخاري

وأصحابه، وذلك أن يؤخذ من أقوال الثلاثة قول أقربهم بها في المسئلة ثم بعد ذلك يتتبع اختيارات الفقهاء الحنفيين الذين كانوا من علماء الحديث كالحافظ أبي جعفر الطحاوي، فرب شيئ سكت عنه الثلاثة في الأصول وما تعرضوا لنفيه، ودلت الأحاديث عليه فليس بد من إثباته، والكل مذهب حنفي".

وهذا ما نستطيع أن نعبر عنه "بفقه الإمام الدهلوي" لابد أن يستعرض العلماء هذا الفقه المتزن الوسط استعراضا علميا، وأن يضعوه على المحك العلمي ولاسيما في عصرنا هذا، ويضعونه موضع البحث والتحقيق بل موضع العمل والتطبيق،كتب الإمام الدهلوي حول هذا الموضوع في مواضع عديدة من كتابه الشهير "حجة الله البالغة" و"التفهيمات الإلهية" و"المسوى شرح الموطا" شيئا كثيرا، وأفرد تصنيفا خاصا حول الخلافات الفقهية وسماه: "الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف"، وكتب رسالة جامعة حول موضوع الاجتهاد والتقليد وسماها: "عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد"

رأي الإمام في التقليد : لقد كان موضوع التقليد والاجتهاد مثارا للخلاف والنزاع بين العلماء قديما وحديثا، وقد كثرت فى الموضوع

الآراء والمباحث، ما بين إفراط منها وتفريط، وغلو وتقصير، وقد سبق منا أن العصر الذي واجهه الإمام الدهلوي عصر النزعة التقليدية الشديدة والجمود الفكري على المتونات الفقهية، فتناول الإمام الدهلوي هذا الموضوع وأدلى فيه دلوه، وأخذ بالوسطية والقصد في فكره ومنهجه، وقدم نظرية عادلة متزنة، فلم يفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ولم يمنع دخوله لمن استكمل شروطه، يقول شيخنا أبويوسف السيد سلمان الحسيني الندوي:

" لا يخفى على أي باحث شرعي أن مسئلة الاجتهاد و التقليد كانت ولا تزال من المسائل التي حميت حولها معركة الجدال و النقاش، وأطال أصحاب الأقلام من كلا الجانبين فيها البحث و الكلام، رغم أن الذي ناقشوه وتناظروا فيه وأدلوا فيه بدلائهم كان أمرا واقعيا يحس ويرى، ولم يكن أمرا نظريا يبحث عنه، ومعلوم أنه مادامت العقول الواعية والكفاءات الظاهرة والصلاحيات العلمية قائمة وما دامت العلوم لاتقبض، والبحث لاينفد، فمن التعسف أن يقال:إنه لا تستطيع أن تبلغ عقول المتأخرين إلى ما بلغته عقول الأولين، فلم يخص الله عصرا دون عصر ومصرا دون مصر بالعقل والبحث والتفكير، بل جعل الأمر بالهمة والجد والانصراف التام، ويتبين

للدارسين أن قضية الاجتهاد والتقليد كانت من القضايا الحساسة التي كثر فيها القيل والقال، وأصبح الناس فيها ما بين مفرط ومعتدل، وقليل ما هم، فمن قائل إن الإجتهاد قد انقطع، وأن بابه مغلق، وأنه لم تلد الأمة بعد الأئمة الأربعة مجتهدا، وسوف لاتلد، وأن التقليد فرض عين، ولا يجوز التجرؤ على الاجتهاد، هؤلاء هم المفرطون، ومن قائل: إن أبواب الاجتهاد مفتوحة على مصاريعها يدخل فيها من يشاء، وأن لا حجر ولا منع، وأن الأئمة لم يحتكروا الاجتهاد، وأن تشديد العلماء مرفوض، وهؤلاء هم المفرطون، أما المعتدلون يقولون: إن الاجتهاد مفتوح بابه لمن يستحقه بملكاته التي تطلب للاجتهاد، وقد كان الإمام الدهلوي على رأس هؤلاء العلماء المعتدلين، بل كان ممن استوفى شروط الاجتهاد، فكان كلامه في مباحثه كلام خبير وبصير"([1]).

لقد قسم الإمام الدهلوي تقليد العلماء إلى قسمين: صحيح وباطل، فقال عن التقليد الصحيح: "اعلم أن تقليد المجتهد على وجهين: واجب وحرام، فأحدهما: أن يكون من أتباع الرواية دلالة،

([1]) مقدمة الاجتهاد والتقليد في ضوء كتابات الإمام الدهلوي ومكانته الفقهية للشيخ سلمان الحسيني الندوي

تفصيله أن الجاهل بالكتاب والسنة لا يستطيع بنفسه التتبع ولا الاستنباط، فكان وظيفته أن يسأل فقيها، ماحكم رسول الله ﷺ في مسئلة كذا وكذا؟ ماذا أخبر تبعه سواء كان مأخوذا من صريح نص أو مستنبطا منه أو مقيسا على المنصوص، فكل ذلك راجع إلى الرواية عنه ﷺ ولو دلالة....و إمارة هذا التقليد أن يكون عمله بقول المجتهد كالمشروط بكونه موافقا للسنة، فلا يزال متفحصا عن السنة بقدر الإمكان، فمتى ظهر حديث يخالف قوله هذا أخذ بالحديث، وإليه أشار الأئمة"([1]) .

وقال معلقا على قول الإمام ابن حزم وأوضح أنه لم يرد هذا النوع من التقليد عند قوله:" إنه حرام": " وليس محله فيمن لا يدين إلا بقول النبي ﷺ ولا يعتقد حلالا إلا ما أحله الله ورسوله، ولا حراما إلا ما حرمه الله ورسوله، ولكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ، ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه، ولا بطريق الاستنباط من كلامه اتبع عالما راشدا على أنه مصيب فيما يقول، ويفتي ظاهرا متبعا سنة رسول الله ﷺ، فإن خالف ما يظنه أقلع من

(1) عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد ص: 27

ساعته من غير جدال ولا إصرار، فهذا كيف ينكره أحد مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبي ﷺ، ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائما أو يستفتي هذا حينا وذاك حينا، بعد أن يكون مجمعا على ما ذكرنا"([1]).

التقليد الباطل فى رأي الإمام : وقد تحدث الإمام الدهلوي عن النوع الثاني من التقليد، وهو التقليد الباطل، فقال:"والوجه الثاني: أن يظن بفقيه أنه بلغ الغاية القصوى فلا يمكن أن يخطئ، فمهما بلغه حديث صحيح صريح يخالف مقالته لم يتركه، أو ظن أنه لما قلده كلفه الله بمقالته، وكان كالسيف المحجور عليه، فإن بلغه حديث واستيقن بصحته لم يقبله لكون ذمته مشغولة بالتقليد، فهذا اعتقاد فاسد وقول كاسد ليس له شاهد من النقل والعقل، وما كان أحد من القرون السابقة يفعل ذلك"([2])

(1) حجة الله البالغة 1/155– 156

(2) عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد ص: 28

وقد مر أن عصر الإمام الدهلوي كان عصر الجمود العلمي، وكان هذا النوع من التقليد سائدا في عصره، فندد الإمام بهذه النزعة في مواضع وأنكر عليها، وقال بكل صراحة مخاطبا لطلبة العلم :

"خضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم، أما تعرفون أن الحكم ما حكم الله ورسوله، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به، ويقول: إنما عملي على مذهب فلان، لا على الحديث، ثم اختال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكملة المهرة، وإن أئمة ([1]) لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم في الدين من نسخ أو مرجوحية،،، اعلموا أن هذا ليس من الدين في شيئ، إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه، خالف مذهبا أو وافق،كان مرضي الحق أن تشتغلوا بكتاب الله وسنة رسوله ابتداء، فإن سهل عليكم الأخذ بهما فبها ونعمت، وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأي من مضى من العلماء ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة" ([2]).

---

(1) (هكذا في الأصل ولعل الصحيح " الأئمة")

(2) التفهيمات الإلهية 1/ 315

ولقد صرح الإمام الدهلوي بأن هذا النوع من التقليد لا يصح، وقد يؤدي إلى تحريف في الدين، فقال بكل صراحة :

"ومنها (من أسباب التحريف) تقليد غير المعصوم أعني غير النبي ﷺ الذي ثبتت عصمته، وحقيقته أن يجتهد واحد من علماء الأمة في مسألة فيظن متبعوه أنه على الإصابة قطعا أو غالبا، فيردوا به حديثا صحيحا، وهذا التقليد غير ما اتفق عليه الأمة المرحومة، فإنهم اتفقوا على جواز التقليد للمجتهدين مع العلم بأن المجتهد يخطئ ويصيب، ومع الاستشراف لنص النبي ﷺ في المسألة والعزم على أنه إذا ظهر حديث صحيح خلاف ما قلد فيه ترك التقليد واتبع الحديث، قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) أنهم لم يكونوا ليعبدونهم ولكنهم إذا أحلوا شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه" ([1]).

وقال في موضع آخر في كتابه النادر الفريد: "فإن بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذي فرض الله علينا طاعته بسند صالح

([1]) حجة الله البالغة 121/1

يدل على خلاف مذهبه، وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين، فمن أظلم منا؟ وما عذرنا يوم يقوم الناس لرب العالمين"([1]).

ونجد الأئمة الأعلام أنهم صرحوا بعدم جواز التقليد من دون نظر وتفكير، سئل أبوحنيفة رحمه الله: إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه؟ قال: "اتركوا قولي بكتاب الله" فقيل : إذا كان خبر الرسول صلى الله عليه وسلم يخالفه؟ قال: "اتركوا قولي بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم" فقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه، قال:"اتركوا قولي بقول الصحابة".

قال أبوحنيفة :"لاينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي"، وكان إذا أفتى يقول: "هذا رأي النعمان بن ثابت" يعني نفسه، و"هوأحسن ماقدرنا عليه،فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب".

قال مالك :"ما من أحد إلا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه إلارسول الله صلى الله عليه وسلم".

---

(1) حجة الله البالغة 156/1

قال الشافعي: "إذا قلت قولا وكان النبي ﷺ قال خلاف قولي فما يصح من حديث النبي صلى الله عليه وسلم أولى ،فلاتقلدوني ".

نقل إمام الحرمين في النهاية عن الشافعي أنه قال: " إذا بلغكم خبرصحيح يخالف مذهبي، فاتبعوه، واعلموا أنه مذهبي".

روى الحاكم والبيهقي عن الشافعي أنه كان يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وفي رواية : إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي الحائط" وقال يوما للمزني:" يا إبراهيم! لاتقلدني في كل ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك، فإنه دين".

وكان رحمه الله يقول : لاحجة في قول أحد دون رسول الله ﷺ و إن كثروا، لا في قياس، ولا في شيئ، وما ثمة إلاطاعة الله ورسوله بالتسليم".

وكان الإمام أحمد يقول :" ليس لأحد مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كلام" ، وقال أيضا لرجل : "لاتقلدني، ولا تقلدن مالكا

ولا الأوزاعي ولا النخعي، وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنة".([1])

الموقف العادل المتزن تجاه المذاهب الفقهية: ولا شك أن منهج الإمام الدهلوي في ذلك يوافق منهج السلف الصالح، ولكن ليس معنى ذلك أن الإمام الدهلوي يدعوا إلى اطراح المذاهب الفقهية المدونة، ويقصد بدعوته إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة إهمال هذا التراث الفقهي العظيم أو التشكيك في صلاحية هذه الثروة العلمية الهائلة، لقد وضح الإمام بذلك وماترك مجالا لأن يحمل كلامه أو كلام الأئمة المذكورين على غير محمله، فقال في حجة الله البالغة:

" مماينا سب هذا المقام: التنبيه على مسائل ضلت بواديها الأفهام وزلت الأقدام وطغت الأقلام ، منها أن هذه المذاهب الأربعة المدونة المحررة قداجتمعت الأمة – أومن يعتدبها– على جواز تقليدها إلى يومنا هذا، وفي ذلك من المصالح مالايخفى لاسيما في

([1]) هذه الأقوال كلها ذكرها عبد الوهاب الشعراني في كتابه "اليواقيت والجواهر" و"الميزان الكبرى" وصاحب كتاب "إيقاظ همم أولي الأبصار"

هـذه الأيـام التـي قصـرت فيهـا الهمـم جـدا وأشـربت النفـوس الهـوى وأعجب كل ذى رأي برأيه"([1]).

وقد عقد الإمام الدهلوي في كتابه : "عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد" بابا بعنوان "تأكيد الأخذ بهذه المذاهب الأربعة والتشديد في تركها والخروج عنها" وذكر فيه بأسلوب علمي عجيب أن الخير كل الخير والسلامة كل السلامة هي في اتباع السلف الصالح، وحيث إنه لم يبق من مذاهب السلف إلا هذه المذاهب الأربعة المدونة تعين وجوب الأخذ بها، وكان الخروج عنها تعريضا للخطر والضلال، وجهادا في غير جهاد، لقد ذكر الإمام الدهلوي نوعين من التقليد كما مر، وحرم منهما التقليد الذي يخالف ما صح عن النبي المعصوم ﷺ، يقول فضيلة الشيخ أبويوسف سلمان الحسيني الندوي عن منهج الإمام الدهلوي:

" وهكذا كان موقف الإمام الدهلوي موقفا متزنا عادلا فهو يرى أن العامي من الناس مذهبه مذهب مفتيه، لأنه لا يستطيع أن يفهم الدليل، وليس له إلا التقليد كما يقلد الناس الأطباء والحاذقين من كل

([1]) حجة الله البالغة 442/1.

فن، ويرجعون إليهم ويصدرون عن رأيهم، فكذلك بل أولى من ذلك وأحق بأن لا يعطى العامي حق الاستدلال أو طلب الدليل، ومن أغرب ما يقع فيه أهل الحديث– كما يسمون أنفسهم– وسلفية هذا العصر وهم أقرب إلى أهل الظاهر أو الخوارج إنهم يطالبون من كل فلاح وعامل، وكادح وتاجر وصانع أن يكون مجتهدا، ولا يقلد أحدا، وهم بذلك يخالفون جمهور العلماء، ويتناقضون في أنفسهم، ففي نفس الوقت يقلدون بعض المحدثين في اجتهاداتهم في تصحيح الأحاديث وتحسينها وينكرون على تقليد الفقهاء، ولا يحدثون إلا الفوضى!!"([1])

ومن الأعمال التجديدية في مجال الفقه الإسلامي للامام الدهلوي أنه بذل جهده في التطبيق بين المذاهب الفقهية وتقريب بعضها بالبعض، وذلك لأنه رأى أن النزاع قد اشتد في عصره بين الحنفية والشافعية، وكانت المعركة الشعواء العقيمة قائمة بينهما، ورأى بأم عينيه ما أدى إليه هذا النزاع من التمزق والتشتت وفتاوى التكفير والتضليل، فلم يكن له إلا أن بذل سعيه للجمع والإصلاح بين الطائفتين وتقريب بعضها ببعض، لقد اختار الإمام الدهلوي أسلوبا

(1) الاجتهاد والتقليد في ضوئ كتابات الإمام الدهلوي للشيخ سلمان الندوي

بليغا يجمع بين المذاهب كشقيقتين من أب واحد وأم واحدة، وهذا من أبرز ميزات منهجه دائما في التطبيق بين الخلافات العلمية فيما بين المسلمين، فقال الإمام الدهلوي: إن كلا من المذهب الحنفي والشافعي انبثقا من مصدر واحد وهو موطا إمام دار الهجرة مالك بن أنس ،فقد كان الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني من تلامذة الإمام مالك بن أنس، فقال في مقدمة كتابه القيم النادر العملي "المسوى في شرح المؤطا" :

"من تتبع مذاهبهم ورزق الإنصاف من نفسه علم لا محالة أن الموطا عدة مذهب مالك وأساسه، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه ،ومصباح مذهب أبي حنيفة ونبراسه، وهذه المذاهب بالنسبة للموطا كالشروح للمتون،وهو منها بمنزلة الدوحة من الغصون" .

ونستطيع أن ندرك من خلال هذا الرأي أن نعرف ما لهذا الرأي من أثر كبير في إخماد النزاع بين أهل المذهبين لاتحادهما في المصدر، وإذا كان المصدر واحدا فلم الجدال والنزاع والشقاق؟ وكذلك نرى أن الإمام يدعو إلى أن يعرض المذهبان على الأصل فيؤخذ ما وافق الحديث، يقول بصدد بيان المنهج في اختيار الآراء الفقهية:

"ونحن نأخذ من الفروع ما اتفق عليه العلماء، لا سيما هاتان الفرقتان العظيمتان: الحنفية والشافعية، خصوصا في الطهارة والصلاة، فإن لم يتيسر الاتفاق واختلفوا فنأخذ بما يشهد له ظاهر الحديث"([1]).

ومن آرائه التجديدية أن المسائل الفقهية الفرعية التي كانت مثارا للجدال والنزاع والشقاق بين المذاهب لم يكن الخلاف فيها في أصل المشروعية، بل كان في ترجيح أحد القولين، الأئمة كلهم أخذوا بأقوال الصحابة، وبنوا عليها مذاهبهم، يقول الإمام الدهلوي : " إن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء لاسيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق وتكبيرات العيدين وتشهد ابن عباس وابن مسعود، والإخفاء بالبسملة وبآمين، والإشفاع والإيتار في الإقامة ونحو ذلك إنما هو في ترجيح أحد القولين، وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية، وإنما كان خلافهم في أولى الأمرين..... ولا ترى أئمة المذاهب في هذه المواضع إلا وهم يضجعون القول ويبينون الخلاف، يقول أحدهم: "هذا أحوط" و"هذا

([1]) التفهيمات الإلهية 202/2.

هو المختار" و"هذا أحب إلي" ويقول : "ما بلغنا إلا ذلك" وهذا كثير في المبسوط وآثار محمد رحمه الله وكلام الشافعي رحمه الله " ([1]) .

تنقيح المذهب الحنفي: ومن الأعمال التجديدية للإمام في المجال الفقهي: تنقيح المذهب الحنفي، وتفصيل ذلك أن المذهب الحنفي– كما تشير إليه الدراسات العلمية العميقة– لم يعد صافيا منقحا في العصور الأخيرة كما كان، وغدا بعيدا عن السنة لعوامل لا نخوض فيها هنا، وكان المذهب الحنفي خليطا بتخريجات المتأخيرين وأقوال الإمام أبي حنيفة، بين الإمام الدهلوي هذه الحقيقة، واكتشف مواضع الضعف والخلل في المذهب الحنفي في عصره، ثم وصف العلاج الناجع فقال:

" إن سبب بعد المذهب عن السنة والتعصب المذهبي والجمود الفكري هو وجود بعض المفاهيم الخاطئة، منها: أن المذهب الحنفي مقصور على ما روي عن أبي حنيفة، ويعتبر العدول عنه إلى قول آخر مخالفة المذهب، ولو قال به بعض علماء الأحناف بناء على دليل صح عنده، بين الإمام الدهلوي أن ذلك ليس من الصواب،

---

(1) حجة الله البالغة 158/1

والحقيقة أن المذهب الحنفي مجموعة آراء الأئمة الثلاثة، والطريقة الأنيقة لاتباع المذهب أن يختار من هذه الآراء ما يوافق السنة، وأكد أن هذا هو عين الاتباع والتقليد الصحيح، وقدم نظرية دقيقة مهمة لتنقيح المذهب الحنفي، قال في كتابه "فيوض الحرمين":

"إن في المذهب الحنفي طريقة أنيقة هي أوفق الطرق بالسنة المعروفة التي جمعت ونقحت في زمن البخاري وأصحابه، وذلك أن يؤخذ من أقوال الثلاثة قول أقربهم بها في المسئلة ثم بعد ذلك يتتبع اختيارات الفقهاء الحنفيين الذين كانوا من علماء الحديث كالحافظ أبي جعفر الطحاوي، فرب شيئ سكت عنه الثلاثة في الأصول وما تعرضوا لنفيه، ودلت الأحاديث عليه فليس بد من إثباته، والكل مذهب حنفي"([1]).

كما قد فرق بين أقوال الأئمة وتخريجات المتأخرين وذكر حقيقة اختلاف الفقهاء في كتابه النادر الفريد "حجة الله البالغة" فقال:

"ومنها: أني وجدت بعضهم يزعم أن جميع ما يوجد في هذه الشروح الطويلة وكتب الفتاوى الضخمة هو قول أبي حنيفة وصاحبيه،

([1]) فيوض الحرمين ص: 84

ولا يفرق بين القول المخرج وبين ما هو قول الأئمة في الحقيقة، ولا يحصل معنى قولهم: "على تخريج الكرخي كذا"، و"على تخريج الطحاوي كذا"، ولا يميز بين قولهم: "قال أبوحنيفة كذا"، وبين قولهم: "جواب المسألة على أصل أبي حنيفة كذا"، ولا يصغي إلى ما قاله المحققون من الحنفيين كابن الهمام وابن النجيم في مسألة العشر في العشر، ومثله مسألة اشتراط البعد عن الماء ميلا في التيمم وأمثالهما، أن ذلك من تخريجات الأصحاب وليس مذهبا في الحقيقة، وبعضهم يزعم أن بناء المذهب على هذه المحاورات الجدلية المذكورة في مبسوط السرخسي والهداية والتبيين ونحو ذلك، ولا يعلم أن أول من أظهر ذلك فيهم هم المعتزلة، وليس عليه بناء مذهبهم، ثم استطاب ذلك المتأخرون توسعا وتشحيذا لأذهان الطالبين ولو لغير ذلك، والله أعلم،،،وجدت بعضهم يزعم أن بناء الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله على هذه الأصول المذكورة في كتاب البزدوي ونحوه، وإنما الحق أن أكثرها أصول مخرجة على قولهم، وعندي أن المسألة القائلة: بأن الخاص مبين ولا يلحقه البيان، وأن الزيادة نسخ، وأن العام قطعي كالخاص، وأن لا ترجيح بكثرة الرواة، وأنه لايجب العمل بحديث غير الفقيه إذا انسد باب الرأي، وأن لا عبرة بمفهوم الشرط

والوصف أصلا، وأن موجب الأمر هو الوجوب البتة، وأمثال ذلك أصول مخرجة على كلام الأئمة، وأنه لا تصح بها رواية عن أبي حنيفة وصاحبيه، وأنه ليست المحافظة عليها والتكلف في جواب ما يرد عليها من صنائع المتأخرين في استنباطاتهم كما يفعله البزدوي وغيره أحق من المحافظة على خلافها عما يرد عليه، مثاله أنهم أصلوا أن الخاص مبين فلا يلحقه البيان، وخرجوه من صنيع الأوائل في قوله تعالى: (واسجدوا واركعوا) وقوله ﷺ: "لا تجزئ صلاة الرجل حتى يقيم ظهره في الركوع والسجود" وحيث لم يقولوا بفرضية الإطمئنان ولم يجعلوا الحديث بيانا للآية، فورد عليهم صنيعهم في قوله تعالى: (وامسحوا برؤوسكم) ومسحه ﷺ على ناصيته حيث جعلوه بيانا، وقوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا) وقوله: (والسارق والسارقة فاقطعوا) وقوله: (حتى تنكح زوجا غيره) وما لحقه من البيان بعد ذلك، فتكلفوا للجواب كما هو موجود في كتبهم".

ثم قال الإمام الدهلوي بعد ذكر أمثلة كثيرة:

" وأمثال ما ذكرنا كثيرة لا تخفى على المتتبع، ومن لم يتتبع لا تكفيه الإطالة فضلا عن الإشارة، ويكفيك دليلا على هذا قول

المحققين في مسألة: لا يجب العمل بحديث من اشتهر بالضبط والعدالة دون الفقه إذا انسد باب الرأي كحديث المصراة أن هذا مذهب عيسى بن أبان، واختاره كثير من المتأخرين، وذهب الكرخي وتبعه كثير من العلماء إلى عدم اشتراط فقه الراوي لتقدم الخبر على القياس، قالوا : لم ينقل هذا القول عن أصحابنا بل المنقول عنهم أن خبر الواحد مقدم على القياس، ألا ترى أنهم عملوا بخبر أبي هريرة في الصائم إذا أكل أو شرب ناسيا، وإن كان مخالفا للقياس حتى قال أبوحنيفة رحمه الله: لولا الرواية لقلت بالقياس" ([1]).

هذه آراء علمية عادلة متزنة دقيقة وطريق وسط بين الجمود الفكري العقلي والحرية الجامحة، وذلك ما نستطيع أن نعبر عنه "بفقه الإم الدهلوي" لابد أن يستعرض العلماء هذا الفقه المتزن الوسط استعراضا علميا وأن يضعوه على المحك العلمي ولاسيما في عصرنا هذا،ويضعونه موضع البحث والتحقيق بل موضع العمل والتطبيق.

(1) حجة الله البالغة 1/160– 161

الإمام الدهلوي بين أهل الرأي وأهل الحديث

يعرف الباحثون والمطلعون على تاريخ الفقه الإسلامي أنه كان هناك مدرستان للإفتاء والاجتهاد في عصر الصحابة والتابعين، منهم من كان يفتي بالرأي غير متوقف إذا لم يجد نصا ولا فتوى صحابي، ومنهم من لا يرى الاجتهاد إن لم يجد ما يعتمد عليه من الأدلة القطعية من القرآن والسنة، فانقسموا إلى قسمين أو إلى منهجين أو إلى مدرستين، مدرسة اختارت المنهج الأول واشتهرت "بأهل الرأي" والثانية اختارت المنهج الآخر، وسمي أهلها " أهل الحديث" وما كان الخلاف بينهم في أصل الاحتجاج بالسنة أو قبولها ولزوم الأخذ بها إن ثبتت، ولا في ضرورة استعمال العقل والاجتهاد في استنباط الأحكام للنوازل والمستجدات الفقهية كما سبقت الإشارة في كلام الإمام الدهلوي،

ثم اتسعت الفجوة والثلمة بين المنهجين وبعد الشق بين المدرستين، ولم تزدهما الأيام إلا بعدا وشقاقا، فسار كل فريق في مدى أوسع مما سار فيه السابقون حتى تخطى الحدود التي وضعوها، فكانت مدرستان متجادلتان متحاربتان منفصلتان، اتهمت مدرسة أهل

الرأي "الثانية" بأنها "لا تعقل ولا تفقه" وتبرأت مدرسة أهل الحديث من "الأولى" لأنها لا تحكم السنة، وكان شقاق ونزاع وخلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث، وهكذا تغيرت المعاني والحقائق والمراد من " أهل الرأي والحديث"، قام الإمام الدهلوي ببيان الطريق الوسط وجمع هاتين المدرستين على نقطة واحدة، بين المراد الصحيح من كلمة "أهل الرأي وأهل الحديث" وذكر خصائصهم ومنهجهم، وقدم طريقا وسطا للجمع بينهما، وكتب بحثا قيما نفيسا رائعا في كتابه: " الإنصاف في بيان سبب الاختلاف" وقد جادت يراعة شيخنا أبي يوسف السيد سلمان الحسيني الندوي على هذا الموضوع، فألف كتابا علميا نافعا : " آراء الإمام الدهلوي في تاريخ التشريع الإسلامي والموازنة بين أهل الرأي وأهل الحديث" ([1]).

([1]) وقد طبع الكتاب من "دار السنة للنشر والتوزيع " جميعة شباب الإسلام – لكناؤ،.

دور الإمام ومنهجه في مقاصد الشريعة وأسرار الأحكام

وإن موضوع مقاصد الشريعة وأسرار الأحكام موضوع دقيق خطير وفي غاية من الدقة والخطورة، لم يطرقه إلا العباقرة الأفذاذ في التاريخ الإسلامي مثل الغزالي والشاطبي والجويني وابن عبدالسلام وغيرهم، ونرى الإمام أنه دخل في خضم الموضوع فأحسن وأجاد، فإنه لم يهمل جوهرة العقل بإعمال النصوص، ولم يتعد على النصوص بالمجازفات العقلية المحضة، ولم يكن الإمام الدهلوي معتزليا فلسفيا يعتقد أن العقل هو العمدة في حسن الأشياء وقبحها، ولا يقبل من المنقول إلا ما يوافق المعقول، ولا ظاهريا لا يقيم للعقل وزنا، ويعتقد أن جميع أحكام الإسلام تعبدية لا يجوز البحث عن مصالحها وحكمها، واختار الوسطية من بين الاعتزال والظاهرية، ولو نمعن النظر في"حجةالله البالغة" نري أنه يؤكد ويصرح أن العقل ليس مصدرا للشريعة الإسلامية، لا في العقائد ولا في الأحكام، ولا يجوز الاعتماد عليه كليا، لا في ثبوت الشرعيات ولا في الفقهيات، ويقول بكل صراحة أن الشارع الحكيم يراعي في جميع التكاليف والأحكام تحقيق مصالح اجتماعية وانفرادية، وقد بين القرآن والحديث كثيرا منها،

وفهمها المسلمون والراسخون في العلم في مختلف العصور، ودارسوها بدقة وإمعان كما مارسوها بصدق وإيمان، وإليك ما قال الإمام الدهلوي بهذا الصدد:

"قد يظن أن الأحكام الشرعية غير متضمنة لشيئ من المصالح، وأنه ليس بين الأعمال وبين ما جعل الله جزاء لها مناسبة، وأن مثل التكليف بالشرائع كمثل سيد أراد أن يختبر طاعة عبده، فأمره برفع حجر أو لمس شجرة مما لا فائدة فيه غير الاختبار، فلما أطاع أو عصى جوزي بعمله، وهذا ظن فاسد تكذبه السنة وإجماع القرون المشهود لها بالخير.....كما قال النبي ﷺ : إنما الأعمال بالنيات .... وإن الصلاة شرعت لذكر الله ومناجاته، كما قال تعالى: (أقم الصلوة لذكري) ولتكون معدة لرؤية الله تعالى ومشاهدته في الآخرة كما قال النبي ﷺ : "سترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا"... وإن الزكاة شرعت دفعا لرذيلة البخل وكفاية حاجة الفقراء، كما قال تعالى في مانعي الزكاة : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) كما قال النبي ﷺ: "فأخبرهم أن الله تعالى

قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقراءهم" وإن الصوم لقهر النفس كما قال تعالى: (لعلكم تتقون)، وكما قال النبي ﷺ : "فإن الصوم له وجاء" ،وإن الحج شرع لتعظيم شعائر الله كما قال تعالى: (إن الصفا والمروة من شعائر الله) .....ثم إن النبي ﷺ بين أسرار تعيين الأوقات في بعض المواضع، كما قال في أربع قبل الظهر : "إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح" وروي عنه ﷺ في صوم يوم عاشوراء : إن سبب مشروعيته نجاة موسى وقومه من فرعون في هذا اليوم، وإن سبب مشروعيته فينا اتباع سنة موسى عليه السلام، وبين أسباب بعض الأحكام فقال في المستيقظ: "فإنه لا يدري أين باتت يده" .... وقال في النوم: فإنه إذا اضطجع استرخت مفاصله.... وبين في مواضع أن الحكمة فيها دفع مفسدة كالنهي عن الغيلة، إنما هو مخافة ضرر الولد، أو مخالفة فرقة من الكفار كقوله ﷺ : فإنها تطلع بين قرني الشيطان وحينئذ يسجد لها الكفار.... أو سد باب التحريف كقول عمر رضي الله عنه لمن أراد أن يصل النافلة بالفريضة: بهذا هلك من كان قبلكم، فقال النبي ﷺ: أصاب الله بك يا ابن الخطاب.... إلى غير ذلك من المواضع يعسر إحصاءها، وبين ابن عباس سر

مشروعية غسل يوم الجمعة، وزيد بن ثابت سبب النهي عن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها، وبين ابن عمر سر الاقتصار على استلام ركنين من أركان البيت، ثم لم يزل التابعون ثم من بعدهم العلماء المجتهدون يعللون الأحكام بالمصالح ويفهمون معانيها ويخرجون للحكم المنصوص مناطا مناسبا لدفع ضرر أو جلب نفع كما هو مبسوط في كتبهم ومذاهبهم، ثم أتى الغزالي والخطابي وابن عبد السلام وأمثالهم- شكر الله مساعيهم- بنكت لطيفة وتحقيقات شريفة"([1])

وندرك من خلال هذه العبارة الموجزة دقة نظر الإمام الدهلوي وذوقه في هذا العلم الجليل حيث تكلم فيها عن أهمية هذا العلم وتاريخه و وجوده في عهد النبي ﷺ وصحابته وعن مصادره الصحيحة منتهجا المنهج الوسط المتزن العادل الصحيح، ثم بعد ذلك تناول الإمام بيان فوائد هذا العلم العظيم النافع، ونجده بهذا الصدد يذكر من فوائد هذا العلم العظيم مما هو يقوي الإيمان والطمأنينة القلبية في نفس العبد المؤمن، يقول الإمام:

([1]) ملخص من حجة الله البالغة 1/ 4-6.

"منهـا : (أي مـن الفوائـد) إظهـار معجـزة مـن معجـزات نبينـا ﷺ، فإنه ﷺ كما أتى بالقرآن العظيم فأعجز بلغاء زمانه، ولـم يستطع أحد منهم أن يأتي بسورة من مثله، ثم لما انقرض زمان القرن الأول خفي على الناس وجوه الإعجاز، قام علماء الأمة فأوضحوها ليدركه من لم يبلغ مبلغهم،كذلك أتى من الله بشريعة هي أكمل الشرائع متضمنة لمصالح يعجز عن مراعاة مثلها البشر، وعرف أهل زمانه شرف ما جاء به بنحو من أنحاء المعرفة حتى نطقت به ألسنتهم وتبين في خطبهم ومحاوراتهم، فلما انقضى عصرهم وجب أن يكون في الأمة من يوضح وجوه هذا النوع من الإعجاز....

ومنها : أنه يحصل به الاطمئنان الزائد على الإيمان، كما قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام: (بلى ولكن ليطمئن قلبي).

ومنهـا : أن طالـب الإحسـان إذا اجتهـد فـي الطاعـات وهـو يعرف وجه مشروعيتها ويقيد نفسه بالمحافظة على أرواحها وأنوارها نفعه قليلها، وكان أبعد من أن يخبط خبط عشواء.

ومنها: أنه إذا اختلف الفقهاء في كثير من الفروع الفقهية بناء على اختلافهم في العلل المخرجة المناسبة وتحقيق ما هو الحق هنالك لا يتم الكلام إلا بكلام مستقل في المصالح.

ومنها : أن المبتدعين شككوا في كثير من المسائل الإسلامية بأنها مخالفة للعقل، وكل ما هو مخالف له يجب رده أو تأويله،كقولهم في عذاب القبر: إنه يكذبه الحس والعقل، وقالوا في الحساب والصراط والميزان نحوا من ذلك، فطفقوا يؤولون بتأويلات بعيدة، وأثارت طائفة فتنة الشك، فقالوا: لم كان صوم يوم آخر رمضان واجبا وصوم أول يوم من شوال ممنوعا عنه؟ ونحو ذلك من الكلام، واستهزأت طائفة بالترغيبات والترهيبات ظانين أنها لمجرد الحث والتحريض لا ترجع إلى أصل أصيل، حتى قام أشقى القوم فوضع حديث "باذنجان لما أكل له" يعرض بأنه أضر الأشياء لا يتميز عند المسلمين من المنافع، ولا سبيل إلى دفع هذه المفسدة إلا بأن تبين المصالح وتؤسس لها القواعد كما فعل نحو ذلك في مخاصمات اليهود والنصارى والدهرية.

ومنها : أن جماعة من الفقهاء زعموا أنه يجوز رد حديث يخالف القياس من كل وجه، فتطرق الخلل إلى كثير من الأحاديث الصحيحة كحديث المصراة وحديث القلتين، فلم يجد أهل الحديث

سبيلا في إلزامهم إلا أن يبينوا أنها توافق المصالح المعتبرة في الشرع، إلى غير ذلك من الفوائد التي لا يفي بإحصاءها الكلام"([1]).

وقد تناول الإمام الدهلوي في كتابه النادر الفريد "حجة الله البالغة" – الذي يدل على ابتكار عقليته وإشراقة فكره وشفافية روحه ودقة نظره وعلو كعبه في العلوم– موضوع مصالح الأحكام ومقاصد الشريعة بأسلوب دقيق متزن عادل يمتاز بدقة النظر وعمق الفهم لروح الشريعة الإسلامية الغراء، ونحن نريد بهذا الصدد أن نذكر مثالا واحدا تطبيقا لما مضى مما ذكره الإمام الدهلوي.

مصالح الزكاة:يقول وهو يتحدث عن مصالح الزكوة الأساسية:

" اعلم أن عمدة ما روعي في الزكاة مصلحتان: مصلحة ترجع إلى تهذيب النفس، وهي أنها أحضرت الشح، والشح أقبح الأخلاق، ضار بها في المعاد، ومن كان شحيحا فإنه إذا مات بقي قلبه متعلقا بالمال وعذب بذلك، ومن تمرن بالزكاة وأزال الشح من نفسه كان ذلك نافعا له، وأنفع الأخلاق في المعاد بعد الإخبات لله تعالى هو

(1) راجع مقدمة حجة الله البالغة 6/1.

سخاوة النفس، فكما أن الإخبات يعد للنفس هيئة التطلع إلى الجبروت فكذلك السخاوة تقدمها البراءة عن الهيئات الخسيسة الدنيوية، وذلك لأن أصل السخاوة قهر البهيمية وأن تكون الملكية هي الغالبة وتكون البهيمية منصبغة بصبغها، آخذة حكمها، ومن المنبهات عليها بذل المال مع الحاجة إليه والعفو عمن ظلم والصبر على الشدائد في الكريهات، بأن يهون عليه ألم الدنيا لإيقانه بالآخرة، فأمر النبي ﷺ بكل ذلك وضبط أعظمها- وهو بذل المال- بحدود، وقرنت بالصلاة والإيمان في مواضع كثيرة، وقال تعالى عن أهل النار: (قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين).....

ومصلحة ترجع إلى المدينة،،وهي أنها تجمع لا محالة الضعفاء وذوي الحاجة، وتلك الحوادث تغدو على قوم وتروح على آخرين، فلولم تكن السنة بينهم مواساة الفقراء وأهل الحاجات لهلكوا وماتوا جوعا، وأيضا فنظام المدينة يتوقف على مال يكون به قوام معيشة الحفظة الذابين عنها والمدبرين السائسين لها، ولما كانوا

عاملين للمدينة عملا نافعا، مشغولين به عن أكساب كفافهم، وجب أن يكون قوام معيشتهم عليها"([1]).

وبهذا الأسلوب اللطيف الذي يمتاز بالدقة والعمق والاتزان والوسطية تناول الإمام الدهلوي قواعد الإسلام ومبادئه في جميع المجالات والأبواب، وشرح أسرارها وحكمها ومقاصدها وموافقتها للمعقول موافقة دقيقة، ولا شك أن هذا الأسلوب لتقديم الفكر الإسلامي الصحيح في العصر الحديث– الذي هو مليئ بالفلسفات والبحوث العلمية والعقلية– لا يمكن الاستغناء عن آراء الإمام ومنهجه في هذا الموضوع.

(1) حجة الله البالغة 39/2

دور الإمام ومنهجه وآراءه في علوم الاجتماع

إن الإسلام دين شامل ومنهج متكامل للحياة الإنسانية، وليس من صغير ولا كبير من شعب الحياة الإنسانية إلا ويتناولها الإسلام ويرشد الإنسان فيها إلى ما هو الحق والصواب ويكون فيه نفع للإنسانية ، ومن هنالك يهدف الإسلام إلى تكوين مجتمع مثالي نموذجي في الفكر والعمل والسلوك يعيش صفاء ونزاهة وعفة وطهارة، ويقوم على أساس التعاون والتكافل والتعاضد فيما بينهم، ويضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويكون مجتمعا عفيفا صالحا نزيها بناء ومجتمعا عادلا مقتصدا في الفكر والعقيدة والمعيشة، ومن هنالك يقدم الإسلام مبادئ وقوانين تضمن حفاظ المجتمع وصونه من الانهيار والانحطاط والتردي إلى سفاسف الأخلاق ورذائل الأمور، لأن الإسلام عبارة عن مجموعة قوانين وصفها الشارع الحكيم، وبلغها الرسول الأمين وطبقها على الحياة الإنسانية، ولم يزل العلماء المسلمون والمصلحون يشرحونها ويسعون إلى تحقيقها وتطبيقها على الحياة الإنسانية، ومنهم صاحبنا الإمام الدهلوي ، ونريد بهذا الصدد أن نذكر من آراءه فى مبادئ الاجتماع وأسسه.

وكاد علماء علم الاجتماع يتفقون على أن البحث في مبادئ الاجتماع وأسسه وقيمه مبني على معرفة حقيقة الإنسان في الكون، وما يحتاج إليه في حياته، وإليك ملخص ما قال الإمام في حجة الله البالغة في باب "الارتفاقات" وهو بحث فريد نادر عجيب، يقول:

" اعلم أن الإنسان يوافق أبناء جنسه في الحاجة إلى الأكل والشرب والجماع والاستظلال من الشمس والمطر والاستدفاء في الشتاء وغيرها، وكان من عناية الله به أنه ألهمه كيف يرتفق بأداء هذه الحاجات إلهاما طبيعيا من مقتضى صورته النوعية كما أنه ألهم النحل كيف تأكل الثمرات ثم كيف تتخذ بيتا يجتمع فيه أشخاص من بني نوعها، ثم كيف تنقاد ليعسوبها، ثم كيف تعسل..... غير أنه انضم له مع هذا ثلاثة أشياء لمقتضى صورته النوعية الرابية على كل نوع:

أحدها: الانبعاث إلى رأي كلي، فالبهيمية إنما تنبعث إلى غرض محسوس أو متوهم من داعية ناشئة من طبيتها كالجوع والعطش والشبق، والإنسان ربما ينبعث إلى نفع معقول ليس له داعية من طبيعته، فيقصد أن يحصل نظاما صالحا في المدينة أو يكمل خلقه أو

يهذب نفسه أو يتفصي من عذاب الآخرة أو يمكن جاهه في صدور الناس.

الثاني: أنه يضم مع الارتفاق الظرافة، فالبهيمية إنما تبتغي ما تسد به خلتها وتدفع حاجتها فقط، والإنسان ربما أن تقر عينه وتلذ نفسه زيادة على الحاجة، فيطلب زوجة جميلة وطعاما لذيذا وملبسا فاخرا ومسكنا شامخا.

والثالث : أنه يوجد منهم أهل عقل ودراية يستنبطون الارتفاقات الصالحة، يوجد منهم من يختلج في صدور أولئك، ولكن لا يستطيع الاستنباط، فإذا رأى من الحكماء وسمع ما استنبطوه تلقاه بقلبه وعض عليه بنواجذه لما وجده موافقا لعلمه"([1]).

نرى في هذه العبارة أن الإمام الدهلوي ذكر حقيقة الإنسان ومميزاته من عقل وفكر وذوق وشعور ووجدان، وبعد ذلك ذهب الإمام الدهلوي يقسم حاجات المجتمع إلى أربع درجات سماها "الارتفاقات" هو مصطلح خاص من مصطلحات الإمام الدهلوي، يقول:

([1]) ملخص : حجة الله البالغة 38/1 باب إقامة الارتفاقات

" الأول : هو الذي لا يمكن أن ينفك عنه أهل الاجتماعات الفاخرة، كأهل البدو وسكان شواهق الجبال والنواحي البعيدة من الأقاليم الصالحة، وهو الذي نسميه "الارتفاق الأول"، وأعظم أركانها: اللغة المعبرة عما في ضمير الإنسان، والزرع والغرس، وحفر الآبار وكيفية الطبخ، واصطناع الأواني والقرب، وتسخير البهائم واقتناؤها، وبناء المساكن وصناعة الملابس، وتعيين منكوحة لا يزاحمه فيها أحد يدفع بها شبقه ويذرأ بها نسله ويستعين بها في حوائجه المنزلية، وإيجاد مبادلات ومعاونات، ووضع سنة مسلمة لفصل خصوماتهم وكبح ظالمهم...

والثاني: ما عليه أهل الحضر والقرى العامرة من الأقاليم الصالحة المستوجبة أن ينشأ فيها أهل الأخلاق الفاضلة والحكماء، فإنه كثر هنالك الاجتماعات وازدحمت الحاجات وكثرت التجارب فاستنبطت سنن جزيلة وعضوا عليها بالنواجذ، والطرف الأعلى من هذا الحد ما يتعامله الملوك أهل الرفاهية الكاملة الذين يرد عليهم حكماء الأمم ينتحلون منهم سننا صالحة،،.

والثالث: ولما كمل الارتفاق الثاني أوجب ارتفاقا ثالثا، وذلك أنهم لما دارت بينهم المعاملات وداخلها الشح والحسد والمطل والتجاحد نشأت بينهم اختلافات ومنازعات، وأنهم نشأ فيهم من تغلب عليه الشهوات الرديئة، أو يحيل على الجراءة في القتل والنهب، وأنهم كانت لهم ارتفاقات مشتركة النفع لا يطيق واحد منهم إقامتها أو لا تسهل عليه أو لا تسمح نفسه بها فاضطروا إلى إقامة ملك يقضي بينهم بالعدل يزجر عاصيهم ويقاوم جريئهم، ويجبي منهم الخراج، ويصرفه في مصرفه.

الرابع: وأوجب الارتفاق الثالث ارتفاقا رابعا، وذلك أنه لما استقل كل ملك بمدينة وجبي إليه الأموال وانضم إليه الأبطال، وداخلهم الشح والحرص والحقد، تشاجروا فيما بينهم وتقاتلوا، فاضطروا إلى إقامة الخليفة أو الانقياد لمن تسلط عليهم تسلط الخلافة الكبرى"([1]).

([1]) حجة الله البالغة ، ملخص الباب الأول في الارتفاقات

ولاشك أن المال الذي جعله الله قياما للناس يتحول إلى فتنة كما قال الله عزوجل: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) وذلك إذا أصبح الإنسان لا يهمه إلا جمع الأموال من أي طريق كان، ولو تأتي الأموال من حرام، أو إذا كثر وأصبح دولة بين الناس جر إلى مفاسد هائلة وأضرار كبيرة تقضي على القصد والوسطية في المعيشة في المجتمع الإنساني، وكم من مجتمعات أصيبت بالانهيار الخلقي والاجتماعي والتدهور الديني بسوء النظام الاقتصادي.

وكان المجتمع الذي واجهه الإمام الدهلوي كان يعاني بصنوف من الأدواء الخلقية والأمراض الاجتماعية التي كان سببها توفر الأموال واكتسابها من أي طريق كان، والتعمق في الارتفاقات، والخوض في لذائذ الدنيا الفانية الداثرة، رأى الإمام الملوك والأمراء يأكلون ويشربون وينعمون ويتقلبون في أعطاف النعيم، ويضعون الجزية والخراج على الرعية لقضاء مآربهم وشهواتهم، وكان هو يعرف معرفة جيدة أن ملوك المغول الذين مضوا قد استحوذت عليهم حياة الترف والبذخ وطغى عليهم بحر المدنية المترفة الزائفة والحياة المزورة حتى

لم يبق لهم هم إلا اللذة والتهام الحياة، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشي الحياة تدقيقا عظيما، ورأى كيف يسير المجمتع على منوال ملوكه وأمراءه في تعمق الارتفاقات، فكتب عن كل ذلك في كتابه حجة الله البالغة، وذكر المفاسد الخلقية والاجتماعية التي تترتب على سوء النظام الاقتصادي وتوفر الأموال،كما قدم نظرية الإسلام الاقتصادية الذي هو وسط بين الرهبانية والمادية، يقول في موضع وهو يتحدث عن أحوال ملوك زمانه:

" اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونا كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان، وتعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها حتى قيل: إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجا يكون قيمتها دون مأة ألف درهم، أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن وحمام وبساتين ولا يكون له دواب فارهة وغلمان حسان ولا يكون له توسع في المطاعم وتجمل في الملابس، وذكر ذلك يطول، وما تراه من ملوك بلادنا يغنيك عن

حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع، وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدنية وآفة عظيمة، ولم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم إلا وقد استولت عليه وأخذت بتلابيبه، وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموما وهموما لا أرجاء لها، وذلك لأن تلك الأشياء كلها لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر تستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تقتنى إلا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلا ولا يستطيعون ذلك، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه"([1]).

مفاسد كثرة المال: يبين الإمام أن المال إذا كثر في أيدي بعض الناس، وكان دولة فيما بينهم جر إلى شقاء عظيم وأضرار ومفاسد كبيرة تقضي على الاتزان والقصد في المجتمع، وتسبب الضرر للمكاسب

([1]) حجة الله البالغة ، باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم

الأصلية الصحيحة، وتخرب الدنيا والآخرة، يقول الإمام بهذا الصدد، وكلامه فى غاية الجودة والبراعة:

"ومن مفاسد المدن أن ترغب عظماءهم في دقائق الحلي واللباس والبناء والمطاعم وغيد النساء ونحو ذلك، زيادة على ما تعطيه الارتفاقات الضرورية التي لا بد للناس منها، واجتمع عليها عرب الناس وعجمهم،فيكتسب الناس بالتصرف في الأمور الطبيعية لتأتي منها شهواتهم، فينتصب قوم إلى تعليم الجواري للغناء والرقص والحركات المتناسبة اللذيذة، وآخرون إلى الأموال المطربة في الثياب وتصوير صور الحيوانات والأشجار والتخاطيط الغريبة فيها، وآخرون إلى الصناعات البديعة في الذهب والجواهر الرقيقة، وآخرون إلى الأبنية الشامخة وتخطيطها وتصويرها، فإذا أقبل جم غفير منهم إلى هذه الأكساب أهملوا مثلها من الزراعات والتجارات، وإذا أنفق عظماء المدينة فيها الأموال أهملوا مثلها من مصالح المدينة، وجر ذلك إلى التضييق على القائمين بالأكساب الضرورية كالزراع والتجار والصناع وتضاعف الضرائب عليهم، ذلك ضرر بهذه المدينة يتعدى من عضو منها إلى عضو حتى يعم الكل، ويتجارى فيها كما يتجارى الكلب في

بدن المكلوب، هذا شرح تضررهم في الدنيا وأما تضررهم بحسب الخروج إلى الكمال الأخروي فغني عن البيان"([1]).

الإسلام بين الرهبانية والمادية: ثم راح الإمام يشرح نظرية الإسلام المتزنة العادلة في المال فقال: "واعلم أنه ليس من رضا الله سبحانه وتعالى في إهمال الارتفاق الثاني والثالث، ولم يأمر بذلك أحد من الأنبياء عليهم السلام، وليس الأمر كما ظنه قوم فروا إلى الجبال وتركوا مخالطة الناس رأسا في الخير والشر، وصاروا بمنزلة الوحش، ولذلك رد النبي ﷺ على من أراد التبتل وقال: " ما بعثت بالرهبانية وإنما بعثت بالملة الحنيفية السمحة، لكن الأنبياء عليهم السلام أمروا بتعديل الارتفاقات، وأن لا يبلغ بها حال المتعمقين في الرفاهية كملوك العجم، ولا ينزل بها إلى حال سكان شواهق الجبال اللاحقين بالوحش.

وهنا قياسان متعارضان؛ أحدهما: أن الترفه حسن، يصح به المزاج ويستقيم به الأخلاق ويظهر به المعاني التي امتاز به الآدمي من سائر بني جنسه، والغباوة والعجز ونحوهما تنشأ من سوء التدبير،

([1]) حجة الله البالغة 105/1.

وثانيهما : أن الترفيه قبيح لاحتياجه إلى منازعات ومشاركات وكد وتعب وإعراض عن جانب الغيب وإهمال لتدبير الآخرة، ولذلك كان المرضي التوسط، وإبقاء الارتفاقات وضم الأذكار معها والآداب، وانتهاز الفرص للتوجه إلى الجبروت"([1]).

ومن خلال ذلك نستطيع أن ندرك أن الإمام الدهلوي منتهج المنهج الوسط بين الرهبانية الجامدة والمادية الجامحة، بين غنى مطغ وبين فقر منس، وذلك من مبادئ الإسلام السامية الفاضلة.

وسائل الكسب والاستنماء: نجد الإمام يتحدث عن وسائل الكسب وهو يقرر أن الإستنماء لا بد منه للاستفادة من رأس المال،كما يجب ابتغاء الرزق وفضل الله في الأرض، لكن يجب أن يكون ذلك قائما على أساس التعاون بعيدا عن الاستغلال والحرام، يقول :

" فإن كان الاستنماء فيها بما ليس له دخل في التعاون كالميسر أو بما هو تراض يشبه الاختطاف كالربا فإن المفلس يضطر

---

(1) حجة الله البالغة 2/ 104

إلى التزام ما لا يقدر على إيفائه، وليس رضاه رضا في الحقيقة، فليس من العقود المرضية ولا الأسباب الصالحة، إنما هو باطل وسحت باطل بأصل الحكمة المدنية"([1]).

ثم راح يشرح فلسفة الميسر والربا ويذكر أن خلوهما من روح التعاون والتعاطف هو السبب في حرمتها، يقول: " اعلم أن الميسر سحت باطل ، لأنه اختطاف لأموال الناس عنهم، معتمد على اتباع جهل وحرص، ومنية باطلة وركوب غرر تبعثه هذه على الشرط، وليس له دخل في التمدن والتعاون، فإن سكت المغبون سكت على غيظ وخيبة، وإن خاصم خاصم فيما التزمه بنفسه واقتحم فيه بقصده، والغابن يستلذه ويدعوه قليله إلى كثيره، ولا يدعه حرصه إلى أن يقلع عنه، وعما قليل تكون الترة عليه، وفي الاعتياد بذلك إفساد للأموال ومناقشات طويلة وإهمال للارتفاقات المطلوبة وإعراض عن التعاون المبني عليه التمدن..... وكذلك الربا– وهو القرض على أنه أن يؤدى إليه أكثر أو أفضل مما أخذ– سحت باطل، فإن عامة المقترضين بهذا النوع هم المفاليس المضطرون، وكثيرا ما لا يجدون الوفاء عند الأجل،

---

(1) نفس المصدر 2/ 104

فيصير أضعافا مضاعفة لا يمكن التخلص منه أبدا، وهو مظنة لمناقشات عظيمة وخصومات مستطيرة"([1]) .

مبادئ التحليل والتحريم في المعاملات: وإن الإمام الدهلوي يتناول موضوع مبادئ التحليل والتحريم في المعاملات في الشريعة الإسلامية، ويستعرض البيوع المنهي عنها ويقول: أن النهي يدور حول عدة معان،نذكر فيما بعضها يلى :

بيع الأشياء الخبيثة حرام :يقول "واعلم أن النبي ﷺ بعث في العرب ولهم معاملات وبيوع، فأوحى الله إليه كراهية بعضها وجواز بعضها، والكراهية تدور على معان:

منها: أن يكون شيئ قد جرت العادة بأن يقتنى لمعصية أو يكون الانتفاع المقصود به عند الناس نوعا من المعصية كالخمر والأصنام والطنبور، ففي جريان الرسم ببيعها واتخاذها تنويه بتلك المعاصي وحمل الناس عليها وتقريب لهم منها، وفي تحريم بيعها واقتناءها إخمال لها وتقريب لهم من أن لا يباشروها، قال رسول الله

---

(1) حجة الله البالغة 106/2.

ﷺ: إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، وقال : إن الله إذا حرم شيئا حرم ثمنه....."

كل عقد يؤدي إلى النزاع فهوحرام : يقول: "ومنها أن لا تنقطع المنازعة بين العاقدين لإبهام العوضين أو يكون العقد بيعة في بيعتين، أو لا يمكن تحقق الرضا إلا برؤية المبيع ولم يره، أو يكون في البيع شرط يحتج به من بعد..... وأن لا يكون التسليم بيد العاقد كمبيع ليس بيد البائع، وإنما هو حق توجه له على غيره، وشيئ لا يجده إلا برفع قضية أو إقامة بينة أو سعي واحتيال أو استيفاء واكتيال أو نحو ذلك، فإنه مظنة أن يكون قضية في قضية أو يحصل غرر وتخييب، قال رسول الله ﷺ: لا تبع ما ليس عندك، ونهى عن بيع الغرر وتخييب وكل ما ليس عندك..."

ما أضر بالجماعة فهو حرام: يقول :"ومنها: ما يكون سببا لسوء انتظام المدينة وإضرار بعضها بعضا، فيجب إخمالها والصد عنها، قال رسول الله ﷺ: لا تلقوا الركبان للبيع، ولا يبع بعضكم على بعض، ولا يسم الرجل على سوم أخيه ، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضر لباد..."

لا يجوز عقد فيه غش وتدليس: ويقول: " ومنها: ما يكون فيه التدليس على المشتري، قال رسول الله ﷺ: لا تصروا الإبل أو الغنم، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، إن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعا من تمر".... وقال ﷺ في صبرة طعام وداخلها بلل: "أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غش فليس مني...."([1]).

(1) ملخص من حجة الله البالغة 2/106– 111

منهج الإمام الدهلوي وآراءه في السياسة

وكان الإمام الدهلوي قد رأى بعيني رأسه أن سلطان المسلمين السياسي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكانت الدولة الإسلامية المغولية التي حكمت هذه البلاد قرونا طويلة في احتضار، ورأى أن الاضطرابات والفتن والحروب الأهلية الدامية تندلع في البلاد، كما يهددها الاستعمار الأجنبي الغاشم، ورأى أن دعائم السياسة منهارة متزلزلة في عصره، فكان من الواجب لإمام الدعوة والإصلاح أن يهتم بهذا الجانب ولا يشغل عنه، فدخل الإمام الدهلوي في خضم الموضوع، يقول الشيخ السيد أبوالحسن الندوي :

" لم يكن الإمام الدهلوي خلال العجاج المتراكم من هذه الحوادث والأزمات بل في أمطارها الهاطلة الغزيرة جالسا تحت السماء منصرفا إلى البحث والتأليف والتدريس والتصنيف بحيث لا تقلب نفحات الرياح العاتية أي ورقة من كتابه، ولا تمحو قطرة من قطرات هذه المطر الغزير أي حرف من حروفه فحسب، بل كان يعمل في جد ونشاط وحزم وجهاد لتغيير هذه الأوضاع واستعادة السلطة الإسلامية في هذه البلاد،وإقامة مملكة قوية موطدة الأركان تشعر

بمسؤوليتها وتعترف بالواقع وتنفذ الأحكام الشرعية، وتحافظ على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم وتقضي على القوى الهدامة التي تعيث في الأرض فسادا، وتنشر الخير والرخاء، فقد كان يقوم في هذا الصدد بالدور القيادي الذي يقوم به أكبر سياسي بصير لا يمت إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأي صلة" ([1]).

وإن دوره في مجال السياسة يحتاج إلى كتاب مستقل، ولكننا نود بهذا الصدد أن نذكر موجزا من أعماله ودوره، فنرى أن جهوده متركزة على هذه الجوانب التالية في مجال السياسة، ونذكر فيما يلي بإيجاز واختصار:

١- الرسائل السياسية التي وجهها الإمام الدهلوي إلى بعض الأمراء في داخل البلاد من ملوك عصره، دعاهم إلى إصلاح الأحوال السياسية وتقوية الدولة، وحتى كتب إلى القادة والأمراء المتحمسين خارج الهند أيضا، ودعا "أحمد شاه أبدالي" إلى الهند من أفغانستان، يقول الشيخ الندوي:

---

(1) رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي 228/4.

" كانت الحاجة ماسة إلى أن لا يقتصر المصلح الناضج ، والمؤرخ البصير وصاحب الفراسة الإيمانية كالإمام الدهلوي على إقامة الصلاة بالملوك المغول – اسما– وأمراء بلاطهم، وإيقاظ الحمية الدينية والغيرة الإسلامية فيهم، وتحريضهم على مقاومة الأوضاع المنحرفة والقوى الهدامة المخربة، فقد خرج هو من نطاق أمراء البلاط الضيق المحدود، وراسل أولئك الأمراء وقادة الجيوش والأبطال الطامحين الذين أحس في داخلهم بجمرة الحمية الدينية والإباء القومي"([1]) .

وكان لهذا الرسائل الإصلاحية دور كبير في توجية الملوك والأمراء، ولكنهم كانوا قد وصلوا في انحطاطهم الديني والخلقي والوهن إلى حد كبير، وكانت الأرض التي بذر فيها الإمام الدهلوي بذور إصلاحه وجهوده لم تكن صالحة لذلك (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) يقول الشيخ الندوي في رجال الفكر والدعوة في الإسلام :

(1) رجال الفكر والدعوة للندوي 236/4.

"وقد استخدم الإمام الدهلوي أيضا مع أشغاله العلمية وجهوده الإصلاحية التجديدية حكمته السياسية وذكاءه البالغ وعلو نظره بحيث لو كان في المغول بقية من صلاحية، وفي أمراء الدولة وأعيانها من علو همة وحنكة سياسية، لكانت الهند في مأمن من الطامحين المفسدين الأهليين القصيرى النظر، ولم تطأها أقدام الإنكليز ولا استحكمت فيها سيطرتهم"([1]).

2- مهد الطريق إلى قيام جماعة تحدث الثورة والانقلاب، وتربى على يديه جيل الانقلاب والثورة في الهند، فخلد آثارا رائعة في تاريخ التجديد والإصلاح والدعوة والبطولات،

من أبرزهم العالم الجليل الشيخ محمد عاشق([2]) الذي كان يرافق الإمام في رحله وترحاله، وسافر معه إلى الحجاز، والشيخ نور الله

---

(1) رجال الفكر والدعوة للندوي 4/ 229.

(2) الشيخ العالم الكبير المحدث محمد عاشق بن عبيد لله بن محمد الصديقي أحد كبار المشايخ ، يرجع نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه بإحدى وعشرين واسطة ، اشتغل بالعلم من صباه ، ولازم الشيخ الأجل ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، وسافر إلى الحرمين معه وحج وزار وشاركه في الأخذ والقراءة على أساتذة الحرمين، والشيخ أبي طاهر المدني،أخذ عنه الشيخ عبد العزيز وصنوه رفيع الدين والسيد أبو سعيد البريلوي، وله عدة مؤلفات، ومن أعظم مآثره : تبييض المصفى شرح

البـدهانوي([1]) جـد الإمـام المصـلح العـالم الكبيـر عبـدالحي البـدهانوي ([2]) زميـل الإمـام أحمـد بـن عرفـان الشـهيد فـي الحركـة، ألـف الإمـام

الموطا للشيخ ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي، توفي نحو سنة سبع وثمانين ومأة وألف، انظر نزهة الخواطر 6/ 828

(1) هو الشيخ العالم كبير نور الله بن معين الله الصديقي البرهانوي أحد فحول العلماء، ولد ونشأ بقرية "برهانة" واشتغل بالعلم من صباه، وسافر إلى دهلي، ولازم دروس الإمام الدهلوي، وأخذ عنه ولازمه ملازمة طويلة حتى صار من كبار العلماء في حيلة شيخه، أخذ عنه الشيخ سراج الهند عبد العزيز الدهلوي، توفي سنة 1187م نزهة الخواطر 6/ 856.

(2)هو الشيخ الإمام الكبير العلامة عبدالحي بن هبة الله بن نور الله الصديقي البرهانوي أحد العلماء المشهورين وعباد الله الصالحين، ولد بقرية برهانة، ونشأ بها ودخل دهلي فلازم الشيخ عبدالقادر بن ولي الله الدهلوي وقرأ عليه الكتب المدرسية وأخذ عن الشيخ عبدالعزيز بن ولي الله الدهلوي وانتفع به نفعا عظيما، درس وأفاد مدة بدهلي، ثم لازم الإمام المجاهد السيد أحمد بن عرفان الشهيد وأخذ عنه الطريقة، وسافر معه إلى الحرمين الشريفين، فحج وزار البيت في العصر الذي أفتى العلماء الجهال الذين سولت لهم أنفسهم باسقاط فريضة الحج، وفي سفره إلى الحجاز عرب "الصراط المستقيم لأهل الحرمين الشريفين، وبعث إليه القاضي محمد بن علي الشوكاني بعض مصنفاته مع الإجازة العامة لمروياته، ثم رجع إلى الهند مع الإمام الشهيد، وقام بالجولات الدعوية وساح البلاد والقرى بأمره سنتين، فانتفع به عدد كبير وخلق لا يحصى بحد وعد، ثم سافر إلى خراسان سنة إحدى وأربعين للجهاد في سبيل الله عزوجل، وتوفي بها عن حياة عامرة بالدعوة والإصلاح والجهاد والكفاح، وكانت آخر كلمة رطب بها لسانه " اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى" وكان للشيخ دور ملموس فعال وجهود مشكورة في حركة الدعوة والإصلاح، حينما يخطب ويلقي المواعظ ترق له القلوب الجافة المستعصية ، وترجع إلى الله بتوبة نصوح، وكم تاب على يديه الفجار الأشرار، وكم سعدت قلوب جافة بعيدة عن خالقها وبارئها بالرجوع والإنابة والتضرع إلى الله، وكم نال المتعطشون

الدهلوي كتابه "التفهيمات الإلهية" على طلبه، والشيخ محمد أمين الكشميري ([1]) ، والشيخ العالم الجليل أبوسعيد([2]) حفيد العالم الرباني الزاهد الكبير الشيخ "علم الله" وجد الإمام القائد البطل المجاهد الباسل المغوار أحمد بن عرفان الشهيد، وكذلك تربى على يدي الإمام الدهلوي المحدث الجليل العالم الربانى والمربي لجيل

الماء الزلال البارد ونهلوا من مورده العلمي الكريم،وللشيخ عبدالحي مصنفات ومؤلفات، منها بابان من كتاب "الصراط المستقيم" باللغة الفارسية في السلوك على طريق الولاية، ومنها تعريب "الصراط المستقيم" ومنها رسالة في حكاية المناظرة ،ومنها فتاوى كثيرة مشهورة لا يحويها الدفاتر،لقد فاضت روحه الطاهرة إلى ربه راضية مرضية إن شاء الله في شهر شعبان سنة ثلاث وأربعين ومأتين وألف بقرية "خارا" من خراسان ودفن بها عن حياة عامرة بالدعوة والجهاد والإصلاح والإرشاد.

(1) هو الشيخ العالم الكبير محمد أمين الولي اللهي الكشميري ،كان من أجلة أصحاب الشيخ ولي الله الدهلوي، ينتسب إلى شيخه ويعرف به، وقد صنف الإمام الدهلوي له بعض رسائله، توفي نحو سنة سبع وثمانين ومأة وألف، انظر: نزهة الخواطر 6/ 808 .

(2) هو السيد الشريف أبوسعيد بن محمد ضياء بن آية الله بن الشيخ الأجل علم الله النقشبندي البريلوي أحد العلماء الربانيين، ولد ونشأ في قرية "راي بريلي" قرأ العلم على ملا الأميتهوي ثم بايع السيد عمه محمد صابر بن آية الله ،لازم الشيخ ولي الله الدهلوي وأخذ عنه، وكان أبوسعيد شيخا جليل الوقار عظيم الهيئة كريم النفس ،مسدي الإحسان ومقري الضيفان، انتفع به خلق، مات في تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين ومأة وألف في راي بريلي ، نزهة الخوطر 6/ 688.

الثورة والانقلاب الشيخ عبد العزيز الدهلوي ([1])الذي هو أول من أفتى بـأن الهنـد أصـبحت دار للحـرب، وأفتـى بفرضـية الجهـاد علـى

(1)العلامة المحدث عبد العزيز بن ولي الله بن عبدالرحيم العمري الدهلوي، لقبه البعض بـ«سراج الهند» وبـ«حجة الله».ولد سنة **1159**هـ، حفظ القرآن الكريم في نعومة أظفاره، وأخذ العلم عن والده –الشيخ شاه ولي الله الدهلوي– ، ثم تتلمذ على أجلة أصحاب والده فاستفاد منهم ما فاته على أبيه. كان كوالده نابغًا في الحديث والفقه، فحمل راية أبيه بعد وفاته، ووقف للإنجليز حين أخذوا يستبدون بالأمر، ويقلصون سلطات الحاكم المسلم، وأطلق الكلمة المأثورة: "إنه لا يُتصوَّر وجود ملك مسلم بدون نفوذ، إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضوء!"، وهو صاحب الفتوى الشهيرة بأن الهند أصبحت دار حرب لا دار إسلام، وعلى المسلمين أن يهبوا جميعا للجهاد بعد أن أصبح إمام المسلمين لا حول له ولا قوة، ولا تنفذ أحكامه، والحل والعقد صار بيد الإنجليز المسيحيين الطغاة، وما كانت هذه الفتوى إلا سارت به الركبان وكأن الهند زلزلت زلزالا، دب في المسلمين دبيب الحياة، فرفع راية الجهاد بعد فتواه ضد الاستعمار الطاغي الظالم،كان رحمه الله أحد أفراد الدنيا بفضله وآدابه وعلمه وذكائه وفهمه وسرعة حفظه، اشتغل بالتدريس والإفادة وله خمس عشرة سنة، فدرس وأفاد حتى صار في الهند العلم المفرد، وتخرج عليه الفضلاء وقصدته الطلبة من أغلب الأرجاء.كان للشيخ عبدالعزيز رحمه الله مؤلفات كلها مقبولة عند العلماء محبوبة إليهم، وقد أكثر الحط على الشيعة في المسائل العقدية، ومن أشهر مصنفاته ما يلي: تفسير القرآن المسمى بـ«فتح العزيز»، صنفه في شدة المرض ولحوق الضعف إملاء، وهو في مجلدات كبار، ضاع معظمها في ثورة الهند، وما بقي منها إلا مجلدان من أول وآخر، وتحفه اثنا عشرية (نصيحة المؤمنين وفضيحة الشياطين)، وهو رد علمي قوي على الشيعة الرافضة.و"بستان المحدثين" وهو فهرس كتب الحديث وتراجم أهلها ببسط وتفصيل وهذا كتاب غير مسبوق إليه ، وكان باللغة الفارسية ،وقد قام بترجمته إلى العربية د. محمد أكرم الندوي،و"العجالة النافعة" بالفارسية، في أصول الحديث.وغيرها من المصنفات الكثيرة في العلوم والفنون المختلفة مثل المنطق والحكمة وتعبير الرؤيا وغيرها، توفي الشيخ عبدالعزيز عن

المسلمين، فقامت بعد فتواه كبرى الحركات الجهادية الكفاحية في تاريخ الهند بأيدى تلاميذه، هؤلاء العلماء والدعاة والمجاهدون– الذين إذا ذكروا تترنح الأعطاف بذكرهم– كانوا عباقرة الدعوة والإصلاح و رواد الحركة الجهادية في الهند. ([1])

وكان عصر الإمام الدهلوي لا يقتضى أن يقوم هو بالجهاد والثورة بنفسه، فكان من حكمته أنه قام بتربية جيل الجهاد وأعد له خطته، أشار إلى ذلك في كتابه التفهيمات الإلهية فقال:

"فلو فرض أن يكون هذا الرجل في زمان واقتضت الأسباب أن يكون إصلاح الناس بإقامة الحروب، ونفث في قلبه إصلاحهم لقام هذا الرجل بأمر الحرب أتم قيام، وكان إماما في الحرب لا يقاس بالرستم واسفنديار وغيرهما"([2]) .

حياة عامرة بالدعوة والجهاد والتربية والإصلاح في شوال سنة 1239 هـ، وله ثمانون سنة، وكان قد عاش داعيا مصلحا مربيا وعالما كبيرا، ودفن في جنب قبر والده بدهلي. فرحمة الله تعالى عليهما وأدخلهما في فردوسه الأعلى، انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للشيخ الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسني الندوي 7 / 275–283

(1) انظر : الماضي المشرق لعلماء الهند ، لمحمد ميان 2/ 28–29

(2) التفهيمات الإلهية 101/1.

3- كما قدم نظرية الإسلام السياسية، وانتهج في دراسة المسائل السياسية منهجا سلفيا خالصا، فنراه أنه لا يحكم فيها إلا الكتاب والسنة الصحيحة وسلوك الصحابة والتابعين، ولعلنا نعرف ذلك من خلال ما كتبه الإمام في كتابيه "حجة الله البالغة" و "إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء" .

الخلافة : يقول الإمام "هي الرئاسة العامة في التصدي لإقامة هذا الدين بإحياء العلوم الدينية، وإقامة أركان الإسلام، والقيام بالجهاد وما يتعلق به من ترتيب الجيوش والفرض للمقاتلة وإعطاءهم من الفيء، والقيام بالقضاء، وإقامة الحدود ورفع المظالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نيابة عن النبي ﷺ" (1).

وجوب إقامة الخلافة : ويقول: "لا يزال السعي لإقامة خليفة تتوفر فيه شروط الخلافة واجبا على المسلمين وجوب الكفاية إلى يوم القيامة استدلالا بعدة دلائل:

---

(1) إزالة الخفاء ص: 28 المقصد الأول.

منها: أن الصحابة رضي الله عنهم اشتغلوا بتعيين الخليفة قبل تدفين جسد النبي ﷺ، ومنها ما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: " من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية" .

ومنها : أن الله تعالى فرض الجهاد وفصل الخصومات وإحياء العلوم الدينية، وإقامة شعائر الإسلام، وحماية البلاد عن غزو الكفار، وذلك كله لا يتحقق إلا بتعيين الخليفة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" .

ثم نرى الإمام يذكر أهداف إقامة الخلافة ومقاصدها فيقول: " إن معنى الخلافة ومقصودها إحياء تعاليم الإسلام وإقامة شعائره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد والقضاء وإقامة الحدود"([1]).

وهو القائل في حجة الله البالغة:

" اعلم أنه يجب أن يكون في جماعة المسلمين خليفة لمصالح لا تتم إلا بوجوده، وهي كثيرة جدا، يجمعها صنفان: أحدهما ما يرجع إلى سياسة المدينة من ذب الجنود التي تغزوهم وتقهرهم،

([1]) إزالة الخفاء ص: 28 المقصد الأول

وكف الظالم عن المظلوم، وفصل القضايا وغير ذلك،.... وثانيهما: ما يرجع إلى الملة، وذلك أن تنويه دين الإسلام على سائر الأديان لا يتصور إلا أن يكون في المسلمين خليفة ينكر على من خرج من الملة وارتكب ما نصت على تحريمه أو ترك ما نصت على افتراضه أشد الإنكار، ويذل أهل سائر الأديان ويأخذ منهم الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا كانوا متساوين في المرتبة لا يظهر فيهم رجحان إحدى الفرقتين على الأخرى، ولم يكن كابح يكبحهم عن عدوانهم، والنبي ﷺ جمع تلك الحاجات في أبواب أربعة: "باب المظالم" و"باب الحدود" و"باب القضاء" و"باب الجهاد" [1]

صفات الخليفة وشروطه: ذكر الإمام من صفات الخليفة وشروط اختياره وقسمها إلى قسمين: قسم اتفقت عليها جميع أهل الأقاليم المعتدلة وأمم الأمزجة الصالحة ثم جاء الإسلام فقررها، وقسم يختص بذكرها واعتبارها الإسلام، فمن القسم الأول كما يقول: " أن يكون عاقلا بالغا حرا ذكرا شجاعا، ذا رأي وسمع وبصر ونطق، وممن سلم الناس شرفه وشرف قومه، و لا يستنكفون عن طاعته، وقد عرف منه

(1) حجة الله البالغة 2/ 128

أنه يتبع الحق في سياسة المدينة، هذا كله مما يدل عليه العقل الإنساني، واجتمعت أمم بني آدم على تباعد بلدانهم واختلاف أديانهم على اشتراطها لما رأوا أن هذه الأمور لا تتم المصلحة المقصودة من نصب الخليفة إلا بها، وإذا وقع شيئ من إهمال هذه رأوه خلاف ما ينبغي وكرهه قلوبهم وسكتوا على غيظ ".

وأما الشروط التي اختصت بها الشريعة الإسلامية فهي عند الإمام الدهلوي:" والملة المصطفوية اعتبرت في خلافة النبوة أمورا أخرى ، منها : الإسلام والعلم والعدالة والاجتهاد.... والقرشية"([1]).

وشرط القرشية اختلف فيه العلماء قديما وحديثا، ولكن الإمام يرجح قول من اشترط به، ويستدل له بالمنقول والمعقول،

الخليفة منفذ وليس بمشرع: يقول رحمه الله : " لقد كان الإمام منصوبا لنوعين من المصالح، اللذين بهما انتظام الملة والمدن، وإنما بعث النبي ﷺ لأجلهما، والإمام نائبه ومنفذ أمره وكانت طاعته طاعة رسول الله ﷺ ومعصيته معصية رسول الله ﷺ إلا أن يأمر

(1) ملخص من حجة الله البالغة 149/2

بالمعصية، فحينئذ ظهر أن طاعته ليست بطاعة الله وأنه ليس نائب رسول الله صلى الله عليه وسلم "([1]).

تعيين الخليفة : وكيف تنعقد الخلافة التي تستوفي شروطها عند الإمام ، فيرى أنها تنعقد بأحد الوجوه الأربعة، وهي كما يلي:

" الأول : بيعة أهل الحل والعقد، وهم العلماء والقضاة والرؤساء والأمراء كما انعقدت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه،

والثاني: أن يعهد الخليفة إلى واحد يختاره خليفة من بعده، ثم يعلن اختياره، ويوصي المسلمين بطاعته، وأن يكون ذلك العهد لمصلحة المسلمين والدين، لا للقرابة ولا لأثرة،كما فعل أبوبكر بالنسبة لعمر رضي الله عنه.

والثالث : أن يختار الخليفة عددا ممن تتوفر فيهم شروط الخلافة ثم يترك الأمر لأهل الشورى أن يختاروا واحدا منهم،كما فعل سيدنا عمر رضي الله عنه، فاختار الناس عثمان رضى الله عنه.

---

(1) حجة الله البالغة 150/2

والرابع:أن يتغلب أحد ثم يبايعه الناس راضين، وهو عدل مرضي تتوفر فيه شروط الخلافة فتكون خلافته شرعية، وعلى المسلمين طاعته،كما انعقدت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان بعد وفاة علي رضي الله عنه ومصالحة الحسن معه.

وأما من تغلب وهو لا تتوفر فيه شروط الخلافة يجب طاعته، ولا ينبغي الخروج عليه، ما دام حاكما بما أنزل الله، وعلى المسلمين أن يسلموا قضاياه، ويؤدوا زكاة أموالهم إلى عامليه،كما انعقدت الخلافة لعبد الملك بن مروان والخليفة العباسي الأول"([1]).

ويبين الإمام الدهلوي حكمة هذا الرأي الأخير عمن تغلب ولا يستجمع شروط الخلافة فيقول:

" إن الخروج عليه يستلزم ضياع الأموال والنفوس التي حرمها الله وتشتد الفتن ويكثر البغي والفساد، كما لا تعرف نتيجة الخروج عليه، هل يؤدي إلى وضع حسن أم ينتهي إلى ما هو أدهى وأمر"([2])

(1) ملخص من إزالة الخفاء : ص 33– 34

(2) نفس المصدر

ويقول في حجه الله البالغة: " ثم إن استوى ممن لم يجمع الشروط لا ينبغي أن يبادر إلى المخالفة، لأن خلعه لا يتصور إلا بحروب ومضايقات وفيها من المفسدة أشد مما يرجى من المصلحة، وسئل رسول الله ﷺ عنهم فقيل : أفلا ننابذهم؟ قال : لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وقال: إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان"([1]).

وهكذا شرح الإمام الدهلوي نظرية الإسلام السياسية وحقيقة الخلافة الشرعية الإسلامية.

(1) حجة الله البالغة 2/ 150

دورالإمام في مجال التزكية والإحسان وآراءه في التصوف

والحقيقة التي لا تجحد أن التزكية والإحسان والصلة العميقة بالله سبحانه وتعالى والإخلاص الكامل في جميع العبادات والنشاطات هي روح كل عمل ونشاط وجهد وجهاد، وهي الغاية القصوى التي بعث لأجلها الأنبياء والمرسلون، والمهمة العظيمة التي توخيت من رسالة سيدنا محمد ﷺ، فقال سبحانه وتعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحمكة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

وإن التزكية وهذه الروح التي تنفخ في قلب المؤمن الخشوع والتقوى كأنه بين يدي الله تعالى، والزهد في حطام الدنيا، والإقبال على الآخرة، لا تنكر أهميتها بالنسبة للعلماء والعاملين في مجال الدعوة والإصلاح، يقول الإمام الداعية أبوالحسن علي الحسني الندوي في كتابه: " رجال الفكر والدعوة":

" وقد رأينا أن الزهد والتجديد مترافقان في تاريخ الإسلام، فلا نعرف أحدا ممن قلب التيار، وغير مجرى التاريخ، ونفخ روحا

جديدة في المجتمع الإسلامي، أو افتتح عهدا جديدا في تاريخ الإسلام.... إلا وله نزعة في الزهد، وتغلب على الشهوات وسيطرة على المادة ورجالها".

ويذكر لنا تاريخ العلماء السلف الصالحين أنهم كانوا جامعين بين العلم والتقوى، وبين العلم والعمل، بين الحجة الشرعية والخشية القلبية، بين منهج التدريس ومنهج التزكية، بين الظاهر والباطن، ثم خلف من بعدهم خلف فصلوا بينهما، وقامت مدرستان مختلفتان، مدرسة التعليم، ومدرسة التزكية، فالذي كان معلما لم يكن مزكيا، والذي كان مزكيا لم يكن معلما، فريق يدرس الكتب العلمية في دور العلم ولم يكن له نصيب من التزكية والإحسان، وفريق جلس في الزوايا والخانقاهات قانعا بما عنده من أوراد وأشغال ووظائف، فحدثت فجوة وثلمة بين الفريقين ولم تزل تتسع، ومن هنالك وجد الانحراف في العلم والعقيدة، وفقد العلماء تربية الروح ولطائف القلب، وغفل أصحاب الزوايا عن حقيقة العلم الصحيح المنقول عن النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم،

وهنا نجد الإمام الدهلوي جامعا بين حقائق العلم ولطائف القلب، وبين دقة العقل وإشراقة الروح، بين الحجة الشرعية والخشية القلبية، يتناول موضوع التزكية والإحسان وأهميته ويذكر طريق تزكية القلب والنفس، كما ينكر على ما ابتدعه الجهلة الصوفية من خرافات وخزعبلات أشد إنكار،

يبين الإمام الدهلوي أن للإنسان ثلاث لطائف؛ العقل والقلب والنفس، ويستدل في ذلك بكتاب الله والسنة والعقل والتجربة، يذكر أن طريق تزكيتها ليس إلا الطريق الذي عمل به النبي ﷺ وصحابته من الإيمان بالله والعمل الصالح بمفهومهما الحقيقي الشامل والواسع،

"وبالجملة إذا آمن الرجل بكتاب الله أو بما جاء به نبيه صلوات الله وسلامه عليه من بيانه إيمانا يستتبع جميع قواه العقلية والنفسية ثم اشتغل بالعبودية حق الاشتغال ذكرا باللسان وتفكرا بالجنان ودآبا بالجوارح وداوم على ذلك مدة مديدة شرب كل واحد من هذه اللطائف الثلاث حظه من العبودية، وكان الأمر شبيها بالدوحة العظيمة تسقي الماء الغزير فيدخل الري في كل غصن من أغصانها وكل ورق من أوراقها ثم ينبت منها الأزهار، فكذلك تدخل العبودية في

هذه اللطائف، وتغير صفاتها الخسيسة إلى الصفات الملكية الفاضلة، فتلك الصفات إن كانت ملكات راسخة تستمر أفاعليها على نهج واحد، فهي المقامات" ([1]).

اليقين: ثم بدأ الإمام في تفصيل هذه المقامات للطائف الثلاثة، وقسم هذه المقامات إلى أصل وفرع، وقرر أن أصل المقامات والأحوال المتعلقة بالعقل هو اليقين، فقال الإمام:

" أصل المقامات والأحوال المتعلقة بالعقل هو اليقين، وينشعب من اليقين: التوحيد والإخلاص والتوكل والشكر والأنس والهيبة والتفريد والصديقية والمحدثية وغير ذلك مما يطول عده، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : اليقين الإيمان كله، ويروى رفعه، وقال ﷺ : "واقسم لنا من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا" أقول : معنى اليقين: أن يؤمن المؤمن بما جاء به الشرع من مسألة القدر ومسألة المعاد ويغلب الإيمان على عقله حتى يمتلئ عقله ويترشح من عقله رشحات على قلبه ونفسه حتى يصير المتيقن به كالمعاين المحسوس، وإنما كان اليقين الإيمان كله لأنه العمدة في

([1]) حجة الله البالغة 91/2.

تهذيب العقل، وتهذيب العقل هو السبب في تهذيب القلب والنفس، وذلك لأن اليقين إذا غلب على القلب انشعبت منه شعب كثيرة، فلا يخاف مما يخاف منه الناس في العادة علما منه بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويهون عليه مصائب الدنيا اطمئنانا بما وعد في الآخرة، وتزدري نفسه بالأسباب المتكثرة علما منه بأن القدرة الوجوبية هي المؤثرة في العالم بالاختيار والإرادة، وبأن الأسباب عادية فيفتر سعيه فيما يسعى الناس فيه ويكدون ويكدحون فيستوي عنده ذهب الدنيا وحجرها....." ([1]).

ثم تكلم الإمام بغاية من الدقة والبراعة في فوائد اليقين وثماره، وذلك بحث عجيب في موضوعه نادر فريد،أخيرا تحدث عن حقيقة الزهد فقال:

" كل شغل بما سوى الله نكتة سوداء في مرآة النفس إلا أن ما لا بد له منه في حياته إذا كان بنية البلاغ (الكفاية) معفو عنه، وأما سوى ذلك فواعظ الله في قلب المؤمن يأمر بالكف عنه، قال ﷺ: الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن

([1]) حجة الله البالغة 91/2

الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك" أقول : قد يحصل للزاهد في الدنيا غلبة تحمله على عقائد وأفعال ما هو محمودة في الشرع مما ليس بمحمود، فبين النبي ﷺ من محال الزهد ما هو محمود في الشرع مما ليس بمحمود، فالرجل إذا انكشف عليه قبح الاشتغال بالزائد على الحاجة فكرهه كما يكره الأشياء الضارة بالطبع ربما يؤديه ذلك إلى التعمق فيه، فيعتقد مؤاخذة الله عليه في صراح الشريعة، وهذه عقيدة باطلة لأن الشرع نازل على دستور الطبائع البشرية، والزهد نوع انسلاخ عن الطبيعة البشرية، إنما ذلك أمر الله في خاصة نفسه تكميلا لمقامه وليس بتكليف شرعي، وربما يؤديه إلى إضاعة المال والرمي به في البحار والجبال، وهذه غلبة لم يصححها الشرع، ولم يعتبرها منصة لظهور أحكام الزهد، بل الذي اعتبره الشرع منصة شيئان: أحدهما الزائد الذي لم يحصل بعد فلا يتكلف في طلبه اعتمادا على ما وعده الله من البلاء في الدنيا والثواب في الآخرة، وثانيهما : الشيئ الذي

فات من يده فلا يتبعه نفسه ولا يتأسف عليه إيمانا بما وعد الله الصابرين والفقراء" ([1]) .

ومن هنالك نرى أن الإمام الدهلوي قام بتنقيح التصوف وأصول التزكية وعرضها على الكتاب والسنة، والرد على ما كان من دخيل في هذا الموضوع، وما كان من مناهج الصوفية الجهلة، يقول الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي في كتابه رجال الفكر والدعوة في الإسلام:

"إن الإمام الدهلوي قدم فيه (حجة الله البالغة) نظاما مرتبا منقحا للاحسان والتزكية، يستطيع الإنسان بسلوكه على دربه أن يبلغ أعلى مدارج الرقي والكمال ومراتب الولاية وغاية الأحوال والمقامات" ([2])

كما نجد في مواعظه وخطبه ووصاياه حرقة الداعية الذي يتألم قلبه لكل ما يراه من صورة المجمتع، والحرص الشديد المتزايد على

---

(1) حجة الله 101/2

(2) رجال الفكر والدعوة للندوي 189/4

التمسك بالكتاب والسنة والرجوع إليهما في كل صغير وكبير، واختيار منهج السلف الصالح، يقول في إحدى مواعظه:

" أما بعد! فإني أوصيكم بالتقوى ومجانبة الهوى، وأذكركم هاذم اللذات ، الموت والبلى، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالحساب كيف يجمع، وعجبت لمن أيقن بالصبر كيف يضحك، وعجبت لمن أيقن بالآخرة ونعيمها كيف يستريح منها، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وزوالها كيف يطمئن بها، وعجبت لمن هو عالم باللسان جاهل بالقلب، ولمن يشتغل بعيوب الناس غير مشتغل بعيوب نفسه، ولمن يعلم أن الله مطلع عليه كيف يعصيه، ولمن يعلم أنه يموت ويحاسب وحده كيف يستأنس بغير الله"([1]).

ولا شك أن الصوفية في الحقيقة كما سبقت الإشارة اسم لأولئك العلماء الربانيين المخلصين الذين جمعوا بين العلم والتزكية بين العقل والروح، ولهم دور في خدمة الإسلام والدين، شهد بذلك التاريخ الإسلامي الزاهر المشرق، واعترف به العلماء المحققون في كل زمان ومكان، ولكن التصوف أصبح في العصور المتأخرة فريسة

(1) التفهيمات الإلهية

لتحريف الغالين وتأويل الجاهلين، وصار أقرب إلى الفلسفة الإشراقية والبرهمية والرياضات البهلوانية منه إلى الكتاب والسنة، واتخذه عباد الدنيا وجهلة الصوفية وسيلة سائغة لأكل أموال الناس بالباطل، واستغلوا الجهل المنتشر في الأمة فتمكنوا في إدخال الأسرار الروحانية والإلهامات والمكاشفات والإشارات الصوفية وخزعبلات وخرافات في أصل الدين ما أنزل الله بها من سلطان، ودور الإمام الدهلوي وموقفه من التصوف كدوره في مجال الفقه الإسلامي، نقحه تنقيحا وعرضه على الكتاب والسنة، فما وافقهما قبله ودعا إليه وإلى التمسك به بكل قوة وصراحة، وما خالفهما أنكر عليه إنكارا شديدا،فقال:

" يا أيها الناس! مالكم تحزبتم أحزابا واتبع كل ذي رأي برأيه، وتركتم الطريقة التي أنزلها الله على لسان محمد ﷺ رحمة بالناس ولطفا بهم وهدى لهم، فانتصب كل واحد منكم إماما ودعا الناس إليه، وزعم نفسه هاديا مهديا، وهو ضال مضل، نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمنا قليلا.... ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم، هؤلاء قطاع الطريق دجالون كذابون مفتونون فتانون، إياكم وإياهم، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله،

ولم يدع إلى نفسه، ولا نرضى بإشاعة الإشارات الصوفية في المجالس والمحافل، إنما المرضي الإحسان، أما لكم عبرة في قول الله تعالى:(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" ([1]).

وقال رحمه الله: " ليس منا من لم يتدبر كتاب الله ولم يتفهم حديث نبيه ﷺ، ليس منا من ترك ملازمة العلماء، أعني الصوفية الذين لهم حظ من الكتاب والسنة أو الراسخين في العلم الذين لهم حظ من الصوفية، وأما الجهال من الصوفية والمجاهرون للتصوف فأولئك قطاع الطريق لصوص الدين، فإياك وإياهم، جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن يطيعه ويتبع رضوانه" ([2]).

ومن هناك نرى أن الإمام الدهلوي كان منتهجا نهج المتقدمين العلماء الصالحين والأسلاف، وكان سلفيا خالصا، والسلفية ليست في المعنى المحرف المزور المعاصر، وأعني بها سيرة السلف الصالح في الفكر والفهم، والتطبيق والعمل، وأعني بها الفقه العميق والفهم الدقيق

(1) التفهيمات الإلهية 214/1

(2) التفهيمات الإلهية 203/2

لروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها، والجهد الدائم المتواصل لنصرة الدين وإقامته والصلة العميقة بالله، وأعني بها الإيمان القوي والوعي والشعور، والفروسية بالنهار والرهبانية بالليل، وأعني بها الطموح وسمو النظر وسماحة الصدر، وأعني بها الزهد في حطام الدنيا وعدم الاستراحة إلا بذكرالله وماوالاه، وأعني بها مبدأ الجمع بين الحجة الشرعية والخشيه القلبيه، وأعني بها ذلك الحزن الذي لا فرحة ألذ منه وذلك الوجع الذي لا راحة أحلى منه، والذي لا يقرله قرار حتى يرى الإسلام سائدا والحق عزيزا والباطل زاهقا،

الخاتمة: إن الأمة الإسلامية في هذه الأيام تعاني وتمر بنفس المشاكل التي واجهها الإمام الدهلوي من طغيان الحكام وعسف الظالمين، وتخلف العلماء عن قيادة المسلمين، واشتغالهم بما لا يسمن ولا يغني من جوع، وانتشار البدع والخرافات والمعاصي والمنكرات في عامة المسلمين، والرضا بالحياة الدنيا، وهجمات شرسة على التعليم والثقافة الإسلامية، ففي مثل هذه الظروف لا بد لنا من أن نستعرض منهج الإمام الدهلوي وآراءه، وفكره العادل المتزن، بل نطبقه على المجتمع، حاولت في هذه الرسالة الموجزة أن ألخص من فكره وآراءه، اللهم وفقنا لما تحب وترضى وانفعنا بما علمنا ، وعلمنا ما ينفعنا،

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين، وصلى الله على النبي الكريم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين

فهرس المحتويات

1	مقدمة الكتاب	3
2	كلمة المؤلف	9
3	مقدمة الطبعة الثانية	11
4	المدخل إلى الموضوع	15
5	نظرة إجمالية على الأوضاع السياسية والعلمية والدينية	16
6	عقلية مبتكرة تبتكر العلاج	29
7	التعريف الوجيز بشخصية الإمام الدهلوي	36
8	اسمه،نسبه، ومولده	37
9	دراسته، وزيارته للحرمين الشريفين	37
10	ميزات الإمام الدهلوي	44
11	آراء العلماء الأجلة فيه	46
12	النظرة الإجمالية على دور الإمام الدهلوي في التجديد والإصلاح	52
13	دور الإمام في علم العقائد	56
14	الدعوة إلى تصحيح العقيدة والتمسك بمنهج السلف	56
15	إبطال العقائد والتقاليد الباطلة والرد على البدع	60

	والمحدثات	
16	الرد على الشيعة	61
17	الأدلة على ثبوت الخلافة	63
18	نقد المجتمع والحسبة عليه ودعوته إلى الرجوع إلى الإسلام من جديد	69
19	خطابه للملوك والسلاطين	70
20	خطابه للأمراء وأركان الدولة	71
21	خطابه للجيش والعسكرية	72
22	خطابه للتجار والأثرياء	73
23	خطابه للعلماء والمتعلمين	74
24	خطابه للعباد الجهال	75
25	خطابه لأولاد المشايخ والمرشدين	75
26	خطابه لعامة المسلمين	76
27	دور الإمام الدهلوي في خدمة القرآن وعلومه	80
28	دور الإمام في خدمة السنة وعلومها	89
29	دور الإمام في مجال الفقه الإسلامي	101
30	موقف الإمام من التقليد والاجتهاد	103
31	رأي الإمام في التقليد	105
32	التقليد الباطل في رأي الإمام الدهلوي	109

33	الموقف العادل المتزن تجاه المذاهب الفقهية	114
34	تنقيح المذهب الحنفي	119
35	الإمام الدهلوي بين أهل الرأي وأهل الحديث	124
36	دور الإمام ومنهجه في مقاصد الشريعة وأسرار الأحكام	126
37	مصالح الزكاة	132
38	دور الإمام ومنهجه وآراؤه في علوم الاجتماع	135
39	منهج الإمام الدهلوي وآراؤه في علوم الاقتصاد	140
40	مفاسد كثرة المال	142
42	الإسلام بين الرهبانية والمادية	144
43	وسائل الكسب والاستنماء	145
44	مبادئ التحليل والتحريم في المعاملات	147
45	بيع الأشياء الخبيثة حرام	147
46	كل عقد يؤدي إلى النزاع فهو حرام	148
47	ما أضر بالجماعة فهو حرام	148
48	لايجوز عقد فيه غش وتدليس	149
49	منهج الإمام الدهلوي وآراءه في السياسة	150
50	الخلافة	158
51	وجوب إقامة الخلافة	158

52	صفات الخليفة وشروطه	160
53	الخليفة منفذ وليس بمشرع	161
54	تعيين الخليفة	162
55	دور الإمام في مجال التزكية والإحسان وآراءه وموقفه من الصوفية والتصوف	165
56	اليقين	168
57	الخاتمة	175
58	فهرس الموضوعات	